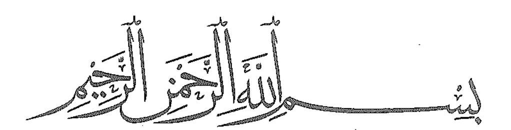
وسم على أديم الزمن

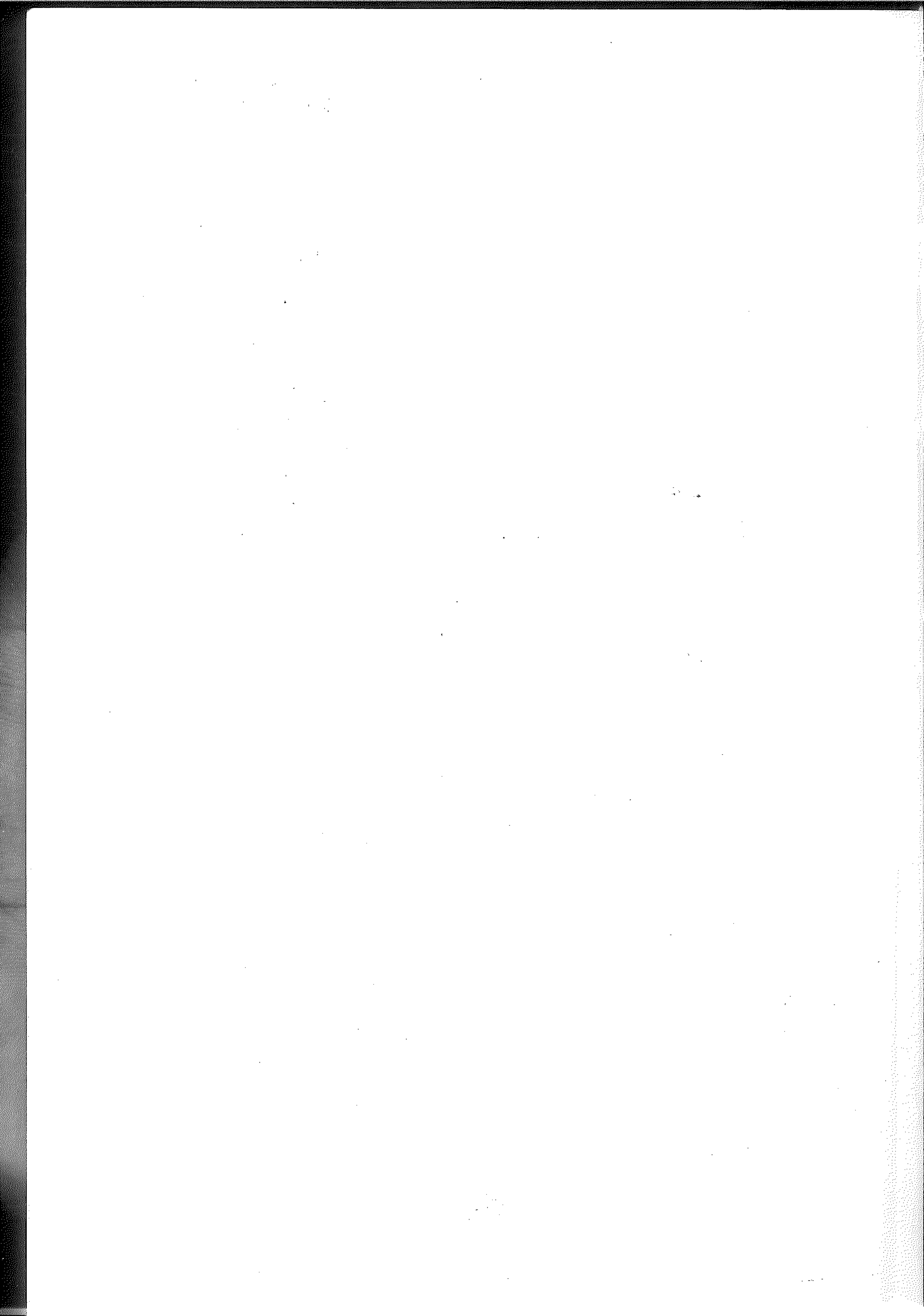
"لمحات من الذكريات"

عبدالعزيز بن عبد الله الخويطر

الجزء الثاني

الطبعة الثانية ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م





وسم على أديم الزمن

«لمحات من الذكريات»

الجزء الثاني

تأليف

عبد العزيز بن عبد الله الخويطر

الطبعة الثانية
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

ⓒ عبدالعزيز بن عبدالله الخويطر ، ١٤٢٧هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الخويطر ، عبدالعزيز بن عبدالله
وسم على أديم الزمن (لمحات وذكريات)./ عبدالعزيز بن عبدالله الخويطر ـ ط ٢ . ـ الرياض، ١٤٢٧هـ.
٤ مج.
٣٩٦ ص، ١٦ × ٢٢,٥ سم
ردمك : ٩ ـ ٠٦١ ـ ٥٦ ـ ٩٩٦٠ (مجموعة)
٥ ـ ٠٦٢ ـ ٥٦ ـ ٩٩٦٠ (ج ٢)
١ ـ الخويطر، عبدالعزيز بن عبدالله ـ مذكرات أ ـ العنوان
ديوي ٨١٨,٠٣٩٥٣١ ٣٧٣٣/ ١٤٢٧

رقم الإيداع : ٣٧٣٣/ ١٤٢٧
ردمك : ٩ ـ ٠٦١ ـ ٥٦ ـ ٩٩٦٠ (مجموعة)
٥ ـ ٠٦٢ ـ ٥٦ ـ ٩٩٦٠ (ج ٢)

الطبعة الثانية
١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م

مقدمة

هذا هو الجزء الثاني من مذكراتي «**وسم على أديم الزمن**»، وما فيه هو امتداد لما جاء في الجزء الأول من معلومات، وقد يكون ما جاء فيه تكملة لبعض ما ورد هناك، وقد تكون إضافة، ولكنه مثل سابقه لم يخرج عن نطاق الحديث عن حياتي في عنيزة إلا في النزر القليل.

في الجزء الأول دارت الأحاديث عن أشخاص، والحديث في هذا الجزء تغلب عليه الوقائع، أو المظاهر المحددة، وهي جميعاً تأخذ حقها من الوصف، وكنت في مسودة الجزء الأول والثاني كتبت مفصلاً عن خطط

البيوت والشوارع، ولكني وجدت أن هذا سوف يكون مملّاً، فأسقطته، وقد يكون له مكان أو فائدة في كتاب آخر، ولكني لن استغني عن وصف بعض الأماكن التي يعتمد قص الحوادث وأخبارها عليها.

وأظهر ما في هذا الجزء هو الحديث عن البيئة، ومظاهر الحياة في عنيزة خاصة، وفي نجد عامة، وهذا أيضاً هو إطار حياتي، وحياة زملائي، ومن عاصرنا. وسوف يجد فيه معاصريّ ما أؤمله من متعة الذكريات لهم، فيجترون معي ذكريات الصبا. أما شباب اليوم فاستفادتهم منه تدور في مجال مقارنة حاضرهم بماضي آبائهم وأجدادهم فحسب، وفي هذا مجال للتبصر والتدبر وقول: الحمد لله على ما أنعم به عليهم من نعم لا تحصى.

لا يتوقع الناظر في هذا الكتاب أنه سيكون مسليّاً مثل كتابي «أي بني»، وأنه لن يمر بما يمله من القراءة، فذاك كتاب يخاطب الشباب، فهو لفئة معيّنة، ومواضيعه منتقاه، وتمثل أهدافاً محددة مختارة، وتأتي أحياناً قصص وحوادث أشعر هناك أنها اللحمة لما جاءت بسببه، وأدى الكلام عنها إليه. أما هذا فوصف لواقع متماسك الأجزاء.

على أي حال هو نافذة في بيت بعينه إلى ساحة بعينها، اخترت أن أضعها أمام القارئ لتكون لبنة في سجل تاريخ مجتمعنا، آملاً أن تفيد. ولعلها تشجع كل من استطاع أن يمسك القلم، ويكتب، أن يفعل ذلك، ويصف لنا حياته، وما مر به، ولا أحدد من يجب أن يكتب؛ ولكني أعتب على كل جامعي أن لا يكتب حياته، فمجلد في رف البيت عن حياة الشخص هو ابن من أبنائه.

قبل أن أختم هذه المقدمة أود أن أذكر القارئ الكريم أن ما قد يجد أنه يصعب على العقل قبوله ما هو إلا فكر مرّ بصاحب المذكرات في سن تقبل غير المعقول بسهولة، بل قد تتطلع إلى ما فيه من غرابة، ويشدها أكثر مما قد يكون مطابقاً للواقع.

وقد يقال إن ما في هذين الجزأين من المذكرات عن حياتي في عنيزة لا يصل إلى حد أهمية التسجيل والإشاعة، وأعود فأكرر ماذا يرجى من حياة صبي يمر بسني حياته الأولى قبل البلوغ؟ وليسأل كل قارئ نفسه لو أراد أن يكتب عن حياته في مثل هذه السن المبكرة ماذا سيجد مما يمكن أن يكتب غير هذا وأمثاله؟

فقد الثقافة :

لم يكن في نجد في زمننا منهج تثقيف للصغار وللشباب، وتحديد قدرة كل سن، وما يناسبه وما يحتاجه. التعليم لمن وفقه الله يقتصر على قراءة القرآن، وحفظ بعض السور، أما باقي المعلومات التي تستقر في ذهن الطفل فهي مما يسمعه عَرَضاً من الكبار عن قصص خيالية تضره أكثر مما تنفعه، أو استنتاجات خاطئة يصل إليها بعقله القاصر، فيبني عليها صوراً خاطئة، تتعقد وتتشوه مع الزمن، وتؤثر على حياته الغضّة في صغره.

أذكر ثلاثة أمور مررت بها كان بالإمكان ألاَّ أقع في أوهامها لو سبق هذا ثقافة، أو كان لي مجال للاستفسار والسؤال، فالخوف من السؤال كان من المعوقات في الوصول إلى المعرفة.

وهمي الأول:

الريال وصرفه:

كنت محتاراً كيف يتم صرف ريال واحد إلى أربع وعشرين «قطعة»، والقطعة الواحدة لا تكاد تصغر عن حجم الريال، وكيف تخرج من الريال قطع نحاسية وهو فضة. وأوصلني تفكيري القاصر إلى أنهم، لصرفه، يكسرونه، ويخرجون منه القطع العديدة هذه، ولكن تبقى الحيرة كيف يخرج هذا العدد الكثير من هذه القطعة الفضية الواحدة.

بقيت هذه الحيرة غالبة عليَّ إلى أن طلب مني جدّي - عليه رحمة الله - أن أذهب إلى ابن «يهق»، صاحب دكان أمام سوقنا، وأصرف ريالاً عنده أعطانيه جدي،

فكدت أطير فرحاً، لأن الحلّ لمَا حيرني قد اقترب، ولكن سرعان ما خاب أملي، فمجرد أن ناولت الريال للرجل فتح «البشتخته» (الصندوق) الذي عنده، وعدّ لي من خانة فيها أربعاً وعشرين قطعة، فلم أر تكسيراً، ولا مطرقة ولا سنداناً. ولعلي بعدها تنبهت ومن ثم تيقنت أن ليس هناك كسر، وإنما تبديل، وهذه الاستنارة أخذت وقتاً وجهداً.

وهمي الثاني:

زوجة الإمام:

هذا الوهم شغل فكري في تلك السن، وهو أني كنت أظن أن زوجة الإمام في رمضان في صلاة التراويح تؤم النساء كما يؤم زوجها الرجال. ولم يكن عندي

مجال للتأكد من ذلك، لأني وأنا في الصلاة لا أدري، فالنساء خلف الرجال في المسجد، وبعد الصلاة فإني لا أصل إلى خلف المسجد إلا بعد انصراف أغلب النساء، وقد تكون معهن زوجة الإمام.

ولم يكن بإمكاني أن أذهب وأصلّي وحدي خلف النساء، فهذا سوف يلفت النظر، على أي حال لا أذكر الآن متى حلت هذه المعضلة، ومتى زالت الحيرة، وقد تكون الحيرة زالت بسؤال قاطع، أو أني جئت للتراويح متأخراً فرأيت أنه ليس أمام النساء امرأة تؤمهن.

وهمي الثالث:

السَّرحة في الصلاة:

كانت «السجّة» (السرحة) في الصلاة همّي الثالث

المقلق لي، لقد أقلقتني وقتاً غير قصير، ومرّ وقت قبل أن أتأكد مما حيرني فيها، كنت «أسج» (أسرح) في الصلاة، وأفكر دون صوت، وأشرّق وأغرّب، وألعب جميع الألعاب؛ أنتقل من لعبة إلى لعبة، أخسر وأكسب، وأتعارك مع أندادي، وآتي بكل نشاط متاح لي، كل هذا بصمت في الصلاة. وعندما أستعيد ذهني أخجل لخوفي من أن كل هذا حدث على مرأى ومسمع من المصلين.

وللتأكد من هذا أنادي، بصمت في ضميري، الإمام باسمه، ولا أراه يجيبني، وأحياناً أنادي شخصاً أعرفه، وموجود غير بعيد مني في الصف، قائلاً: «يا فلان في بيتكم سعيرة»، أي حريقة، فلا أراه تحرّك أو اهتم، وأحياناً أنادي رجلاً أصفه في الصف الثاني قائلاً:

أنت يا الرجل البغل الذي لابس «كتاية» (شماغ) وراء الإمام، خذ، التفت، فلا أراه اهتز، وقد أغنّي في داخلي، أو أنشد نشيداً. وفي هذا كله اطمأننت إلى أن «هواجيسي» لا تُسمع، فصرت آخُذُ حريتي، دون خوف.

وهمي الرابع:

أين موضع الحمل ؟:

جهل الصغير بحقائق الأمور يجعله يبني في ذهنه صروحاً للحقائق حسب ما يمليه عقله الصغير، وتصوره المعوجّ. يرى شيئاً فيه غموض، فيفكر فيه، ويصل في تفكيره إلى أن ما توصل إليه هو الحقيقة، وقد لا يجد أن هناك داعياً ليسأل.

في صغري كنت أظن أن المرأة إذا حملت توزع

الجنين في كل جسمها بالعدل والتساوي، فيداه في يديها، ورجلاه في رجليها، وبطنه في بطنها، وصدره في صدرها، ورأسه في رأسها. وهكذا كل عضو فيه، فهو في كل عضو فيها. وهذه الصورة التي وصلت إليها أراحت ذهني، وطردت الحيرة من فكري، وهذا التصور، لمن هو في سني، أكثر منطقاً من الحقيقة، لم يخطر ببالي أن أقارن الصورة التي رسمتها في ذهني بمنظر الوليد عند ولادته، وهذا فضل من الله، لأني لو تنبهت لهذا لعادت إليّ حيرتي.

علي أي حال ليس هناك طفل يرى الحامل إلا ويسأل كيف يخرج الطفل من بطن أمه، وهو سؤال محيّر، وفي الغالب لا يأتي الجواب مباشراً، وأعرف صغاراً قيل لهم: إنه يخرج من الفم!!

المساجد وما توحي لي به:

أمامي موضوعات متعددة، لا أدري بأيها أبدأ، فهي تتوارد على ذهني توارد الهيم الظماء على الماء، فالنخلة لها في ذهني حيز، والبقرة لها مثله، والدجاج لا يقل عنهما، وكذلك القمح.

وأبدأ بالمساجد، وما توحي به مما يتصل بحياتي في عنيزة، فالمساجد والمقابر دائماً هي العلامات التي لا يقضي عليها تخطيط المدن الجديد، إلا بالزيادة، وإعادة العمارة، أو الصيانة. والمساجد أشرف ما يُبدأ به، لن أتكلم عن عدد المساجد بعنيزة، فهي مثل بقية مدن نجد، كل حي فيه مسجد، إلا أنه ليس فيها إلا جامع واحد، لها ولما حولها من قرى.

المسجد الجامع:

هو الجامع الوحيد لعنيزة وما حولها من القرى والمزارع، ويقع في وسط المدينة، وتقع حوله المرافق المهمة، بيت الأمير قريب منه، ومجلسه، للنظر في أمور الناس، وتنفيذ الأحكام، وبجانب الجامع «المجلس»، سمي كذلك في الغالب لأن الأمير والقاضي يجلسان هناك لتنفيذ الأحكام؛ ويكونان قريبين من صاحب الحاجة، ويرقبان البيع والشراء. والمجلس أكبر مبيعة في البلدة، خاصة للإبل والأبقار والأغنام، والمبيعة في اتساعها رئة المدينة، يأتي إليها الجلب من البادية، والأعراب يبيعون ويشترون فيها.

وسكان القرى يأتون للصلاة يوم الجمعة، مثل سكان العوشزية والروغاني والوهلان والحُفَيِّرة. وأغلبهم

يبقى بعد الصلاة إلى أن يصلي العصر، فإن لم يكن له حاجة يشتريها فإنه يغادر إلى قريته. وهم يقضون وقت الظهيرة بين الصلاتين عند أقاربهم، أو يُدعون للقهوة والشاي عند أصدقائهم ومعارفهم.

قصة المطرودية:

ومما يوضح هذه الصورة قصة المطرودية، وهي قصة مشهورة، معروفة، خاصة عند أهل القصيم، لغرابتها، واتسام بطلتها بالشجاعة والإقدام. وقد سجل الشيخ إبراهيم بن عبيد آل عبدالمحسن هذه القصة في كتابه: «تذكرة أولي النُهى والعرفان» (١/ ٩٩).

ووصف مجيء صاحب العوشزية منصور المطرودي إلى عنيزة لصلاة الجمعة، وذكر أن ما حدث بعد ذلك

هو الآتي:

«كان منصور المطرودي وأخوه حمد من سكان عنيزة، ثم انتقلا إلى العوشزية، وسبب ذلك أن منصوراً هذا، بينما هو شيخ كبير، قُدِّر أنه كان ذات يوم جالساً في الطريق، في بلدة عنيزة، إذ مر الأمير، وكان في فكر مستغرقاً.

فلما جاوز لم يسلم عليه، فوجد منصور في نفسه على الأمير، وناداه باسمه:

ألا تلقي تحية الإسلام، وهي السلام، بل تجاوزني كأنك لا تعرفني، ونسيت أياماً مضت بيننا من المساعدة والمناصرة.

فجعل الأمير يقلب الحيلة في التخلص من هذا

السهو، ويعتذر، غير أن منصوراً أبى أن يقبل منه عذراً.

ثم إنه طلب من أخيه حمد[1] النقلة إلى العوشزية، الواقعة إلى جهة الشرق عن المدينة (عنيزة) بقدر من عشرين كيلومتر، فسكنها هو وأخوه.

ولما أن كان في إمارة جلوي بن تركي قُدِّر أن المطرودي وأولاده ذهبوا لصلاة الجمعة في عنيزة، لأنه إذ ذاك لم يتأسس لديهم جمعة. فلما كان في ذلك الوقت جاء لصوص من «الحنشل»، فاستاقوا إبل أهالي العوشزية، وأخذوها غنيمة باردة، وكانت القرية قد خلت من الرجال، فلم يبق سوى الخدم والنساء والصبيان.

---

(١) أتراه حماداً ؟.

وكان لمنصور ابنة تُدعى مزنة المنصور، خالة عبدالله ابن جلوي، فلبست ثياب أخيها، وامتشقت الحسام، وامتطت الفرس، وأمرت أحد الخدم أن يركب فرساً أخرى[1]، فشدت في طلب القوم، حتى أدركتهم، فقالت لهم.

جنبوا عن الأدباش.

فقالوا: اخرج، جواباً[2] للمذكر، لظنهم أنها رجل.

فأقسمت بالله، لئن لم تجنبوا، لتفاقدوا العدة[3].

فلما رأوا تصميم الفارس، قالوا لها:

يا هذا، اجعلنا في وجهك.

---

(١) المتواتر عندنا أنها وحدها، ولا خادم معها.

(٢) أي وجهوا الكلام بلفظ المذكر ظنّاً منهم أنها رجل.

(٣) لعل المقصود: أن يهلكوا واحداً بعد الآخر.

فقالت: ممنوعين على رقابكم.

فأجابوا، يقولون: من نحن في وجهه؟

فأجابت بوجه حماد المطرودي.

ثم إنها استاقتهم مع الأدباش، حتى ألجأتهم إلى مزارع العوشزية، وأَسَرَتْهُم.

فلما أن جاء الرجال راجعين إلى القرية مع غروب الشمس، إذا بها قد قدمت العشاء، فلما أن قيل:

«تفضلوا يا ضيوف».

أجابوا يقولون: والله لا نطعم حتى يحضر مضيفنا.

فتكلم منصور يقول:

إن مضيفكم ليس بحاضر، وإنما مضيفكم امرأة،

وهي التي طبخت عشاءكم.

فظهر بذلك أن الذي كسر أولئك الأبطال، وأسرهم، امرأة، فشاع ذكرها، فتزوجها جلوي بن تركي، وولدت ابناً سعوداً وبنتاً (كذا).

وبعدما توفيت سأل جلوي:

هل لها من أخت.

فلما تحقق ذلك جاء يخطبها.

فقال منصور المطرودي: ما لديّ سوى ابنة صغيرة.

فطلب الأمير منه أن يزوجه أختها، وهي ميثاء، وإن كانت ذات أولاد، فتزوجها، ثم توفيت، فخطب الثالثة، وهي رقية، فتزوجها، وولدت منه عبدالله بن جلوي.

ومما لم يذكره الشيخ إبراهيم من التفاصيل مما نعرفه نحن بسبب قرابتنا من المطاريد، لأن خويطراً اسمه في الحقيقة: «علي الحميد»، وهو جد الخويطر، والمطاريد، والنعيم، والجابر، والونين، والعبيكي، كما سبق أن ذكرت[1].

وهذه التفاصيل هي أن منصوراً كان صديقاً لجلوي من قبل، فإذا جاء من العوشزية لصلاة الجمعة يذهب (ويتقهوى) عند جلوي، قهوة مرة وشاهي، وبعد صلاة العصر عندما يدخل الناس إلى السوق، يبقون هناك، فإذا بقي على المغرب ما يقرب من نصف الساعة عادوا إلى بيوتهم، وتناولوا طعام العشاء، ثم ذهبوا لصلاة المغرب، وبعضهم يتناول

(١) انظر الجزء الأول من هذا الكتاب، ص ٢٤.

عشاءه بعد صلاة العصر مباشرة.

وبعد صلاة العصر بدأ منصور، ومن معه، رحلة العودة إلى «العوشزية»، الأملاك الخاصة بالمطاريد. وبعد أن طلع «الظهرة» (الحزون) التي تقع شرق عنيزة، سمع طلقة بندق[1]، فقال لمن معه:

«إذا لم يخب ظني فهذا صوت جويسرة».

وجويسرة هذه بندق[1] كان اشتراها منصور من «صلبي»، اسمه جويسر، والثمن كان حماراً ويبدو أن «مزنة» «ثورت» البندق إما تخويفاً، في أول الأمر «للحنشل»، أو أنها ثورتها لأهلها وهي عائدة بصيدها.

وقد تحقق فعلاً ظن منصور، لقد كان الصوت

---

(١) بندقية.

صوت جويسرة، وقد رأيت هذه البندق عند أحد الإخوة الأحبة من المطاريد وصوّرتها.

حكم هادئ:

ذكرت عند حديثي عن المسجد الجامع «المجلس» وهو المبيعة الكبرى بعنيزة، وقلت لعله سمي المجلس لأن الأمير والقاضي يجلسان فيه للحكم والتنفيذ، وهناك قصة[1] يحسن إيرادها لتوضيح صورة من صور دور المجلس والجالسين فيه في رمضان عصراً، والحكم السعودي في أول سيطرته على القصيم، كان الأمراء بيدهم سلطة مطلقة، وكان أمير عنيزة جالساً عصر أحد الأيام في شهر رمضان مع الشيخ قاضي

(١) قد يشك في أن القاضي يتساهل في أمر سرقة أقر بها مرتكبها، لكننا هكذا سمعناها في ذلك الزمن.

المدينة على «حبوس» المسجد الجامع، وجاء مولى من الموالي، معروف بفقره المدقع، وقال للأمير إن فلاناً الفلاني سرق «قعودي»، وهو الآن في بيته، وقد ذبحه، وهو الآن قائم على سلخه. فغضب الأمير، وقال: أيحدث هذا في عهدي، وفي رمضان، والناس صوّام؟! وقال لرجاله:

اذهبوا واحضروه، والله لأفعلن به كذا وكذا، وأجعله عبرة، ليعرف الناس صدق الحكم في العدل، وتنفيذ الشرع.

فقال له الشيخ القاضي: لعلك تترك لي هذه المسألة، ولا تزعج نفسك بها، وفقك الله.

قال الأمير: هي لك، هي لك.

قال للعُبَيْد الشاكي: ما شاء الله تبارك الله، عندك قعود، من أين أتاك؟!

قال: يا شيخ، أحسن الله إليك: «حِفْتُ لي بديوٍ بالحفيّرة، الليلة البارحة، وسرقته منهم.

قال الشيخ: إذاً السارق يُسرق. ثم التفت إلى خدم الأمير، وقال لهم:

اذهبوا لفلان، فإن لحقتم وأدركتم «شلعاً» من القعود فيعطاه هذا.

من وحي مسجد الضبط:

مسجد الضبط يتسع لأهل الضبط، حي أخوالي، وأبرزه هنا من أجل بعض الذكريات، التي تنهال

على ذهني، كلما تذكرت هذا المسجد. هذا المسجد له «حسو» (بئر) يستفيد منه المصلون، وأهل الضبط الذين ليس في بيوتم حساوة.

وهناك حادثة طريفة وقعت لي بجواره، وهي في الوقت نفسه مؤلمة. كان بجانب جدار البئر حفرة يتجمع فيها المطر عندما ينزل، ولا يفصلها عن هذا الجدار إلا متر ونصف، هما ممر ترابي يصبح عند نزول المطر زَلِقاً للسائر وللدابة. وصادف في يوم مطر أن تجمع قليل منه في الحفرة، وبلل الممر، وكنت راكباً حماراً، وفرحاً بذلك، وعند مروري من هذا الممر، وأنا على ظهره، زلق الحمار، وسقطنا معاً في الحفرة، وتَلَبَّسَنَا الطين، وأُخرجت من الحفرة بسهولة، وأنا مُشبَّع بالطين من الرأس إلى أسفل القدمين، وكان

منظري يضحك الثكلى، ورغم أن المتوقع أن أذهب ركضاً لبيت أهلي «القواضى»، وأتخلص من هذا الرداء الطيني غير المرحب به، وابتعد عن العيون الواخزة، وما على الوجوه من ابتسامات ساخرة أو مشفقة، إلا أن حب الاستطلاع أبقاني مسمّراً، أنظر إلى الجهود المضنية، في إخراج البهيمة من الحفرة. وأخيراً أُخرج الحمار من الحفرة بعد جهد. تُرى هل كان بقائي إلى أن أُخرج الحمار حب استطلاع مني ـ كما قلت، أو أنه وفاء الإنسان للحيوان، حتى لا أسقط من عين حمار أخوالي، فيُنظُر إليَّ على أنني تخليت عنه وقت الشدة، وكنت أستفيد منه وقت الرخاء[1].

(١) يُتهم الحمار بأنه إذا وقع الشخص من على ظهره قال له: «كسر»، أما الجمَل يقول لمن سقط من على ظهره: «اسم الله عليك»!!.

البئر والذئب:

والشيء بالشيء يذكر، خاصة ونحن لا نزال في الضبط، وقريبين من مسجده، فهناك قصة حصلت في بئر «الوسيطاء»، وهي مزرعة على حافة «الضبط»، ففي آخر إحدى الليالي، وقبل أذان الفجر، دخل ذئب إلى المزرعة، وذهب ليشرب من «اللزا»، قرب البئر، وهو الحوض الذي يجتمع فيه الماء بعد إخراجه من البئر، قبل أن يُصرف إلى البركة. ويبدو أن صاحب المزرعة جاء إلى «اللزا» ليتوضأ لصلاة الفجر، أو ليهيئ السواني، ففوجئ الذئب بمجئ الرجل، وقيل إنه أراد أن يقفز إلى الجهة الأخرى من البئر، فجاء تقديره خاطئاً فوقع في البئر، وفي رواية أخرى تقول: إن الإثنين لما تقابلا تماسكا، فاستطاع الرجل أن يستدرج

الذئب إلى حافة البئر، وأن يسقطه معه في البئر، وهذا جعل الذئب يترك الرجل، فخرج الرجل من البئر.

ذهب الرجل إلى صلاة الفجر، وأخبر جماعة المسجد بما حدث، فأحضروا بندقاً، وأطلقوا الرصاص على الذئب، وقد سمع الناس في بيوتهم صوت الرصاص. وفي الصباح تجمع الناس ممن دفعه حب الاستطلاع ليروا الذئب بعد أن أخرج من البئر، وقد رأيته من جملة من رآه، وقد بقي لون دمه وقتاً قبل أن تصفوا البئر منه.

وتناقل الناس الخبر، وزادوا فيه وأنقصوا، وكلما انتقل الخبر من فم إلى أذن تغيّر بتأثير الخيال، وخطأ التصور، أو بسوءٍ في السماع، وبقيت هذه الحادثة على ألسنة الناس مدة طويلة، إلى أن جاء ما يشغلهم عنها.

عندما رجعت إلى بيتنا في الهفوف، عائداً من الضبط، بعد زيارة أخوالي، عدت وأنا أزهو أنني رأيت الذئب، ووقفت قرب جثته، لا يفصلني عنه إلا أقل من قدم. وهذه هي أول مرة أرى فيها ذئباً في الواقع، وكانت صورته في مخيلتنا بعيدة عن هذا الواقع، وشتّان ما بين الواقع والخيال.

كنا قبلُ نبني للذئب صورة في أذهاننا تكونت من قصص أمهاتنا، وهن يروين شراسته، وهجومه على الناس والأغنام. وكان حديثنا لزملائنا ينصبّ على تصحيح تلك الصور التي خزنوها، خطأً، مثلنا، عن أنيابه وطولها وحدتها وعن مخالبه وقوتها، وعن خشونة شعره، وقد خيبنا توقعهم بها أفدناهم به، من تصحيح الصورة التي كانوا يحتفظون بها عنه من قبل.

وهناك قصة عن الذئب حدثت في بلادنا قبل أن ينتشر الأمن فيها، وهي كما يلي:

حكى أحد «الحنشل» (فئة من السارقين)[1] أنه كان، ومعه اثنان من زملائه، قاطع طريق، وركزوا على سرقة حجاج العراق، لأنهم وجدوا أنهم دسمون. وفي يوم من الأيام تبعوا قافلة منهم في طريقها إلى المدينة المنورة بعد الحج، وكان كبير القافلة رجلاً نابهاً مجرباً، ذا فكر ثاقب، وبصيرة نيرة، فأرشد جماعته أن ينصبوا خيامهم عندما أرادوا المبيت، في سفح أحد الجبال، ليحمي الجبل ظهرهم، ووضعوا «رواقات» على جانبي المخيم الذي نصبوه للنوم والاستراحة، وتركوا جانباً

(١) أُناس يتسللون في البادية إلى منازل البدو (ليلاً في الغالب) ويأخذون ما يستطيعون أخذه من الحيوانات، وبخاصة الإبل.

واحداً مفتوحاً، وأجلسوا على كل جانب من جانبي هذا القسم المفتوح رجلين شديدين قويين، ومدوا بينهم حبلاً متيناً، غطوه بشيء من التراب، تَعميةً، على أن يتعاقبا الحراسة طوال الليل. وكان على الرجلين إذا دخل اللصوص أن يشدا الحبل، ليرتفع، فيعوق هروبهم، فيطبقا عليهم ويكتفانهم. وقد تم هذا فعلاً كما خطط له، ووقع الثلاثة في الفخ.

كتّفهم العراقيون، وربطوهم بالحبال، ومهدوهم بها كما تمهد المومياء، أو كما يمهد الرضيع قديماً في نجد. وحفروا لهم ثلاث حفر، كل واحدة بطول أحدهم، وأنزلوا كل واحد في حفرة واقفاً، وأهالوا عليهم التراب في الحفرة، ولم يتركوا ظاهراً إلا رؤوسهم. وقال الراوي: إنهم لم يعودوا يستطيعون التنفس إلا

بصعوبة، وأصبح الكلام مستحيلاً، ويئسوا من الحياة عندما شدّ هؤلاء الحجاج على جمالهم، ورحلوا إلى المدينة المنورة قبل طلوع الشمس.

فلما خلا المكان، وابتعدت القافلة، نزل ذئب شرس من الجبل، وكأنه يرقبهم، فاتجه إلى الثلاثة المدفونين في الحفر، ونظر إليهم بعينيين تُميتان قبل الموت، وبوجه متجهم مخيف، وأخذ يجيل النظر بينهم، وحنّ حنين المكتشف لِكُنْهِ ما يرى وكشّر، فلما لم ير رد فعل لموقفه، ولا للصوت الذي أصدرهُ، ولا للتكشيرة التي أبانت قبح أنيابه، وتحدى ما شاء له التحدي، فلما لم ير حركة مقاومة، أعطاهم ظهره، وأخذ يحثو التراب على وجوههم. فتأكد له أنه لا خطر منهم، وأنهم صيد سهل، فانقض على أحدهم، وهو الواقف

جهة الغرب بعد أن أبعد التراب عن رقبته، وأدخل أنيابه في ترقوته، فمزقها، وأخذ يتعمق حتى استخرج (المعلوق): الرئة وما معها، فولغ فيها وأكل منها ما شاء أن يأكل، ثم ذهب إلى الثاني، وقبل أن يفعل به ما فعل بالأول انحدرت ذئبة من الجبل، أثداؤها تدل على أن لها جراءًا، وأنها مرضع، فطردها بعنف ووحشية، فهربت عائدة إلى الجبل.

رجع الذئب إلى فريسته الثانية، وأكمل معها كما فعل من قبل بالضحية الأولى. فلما شبع جاء للثالث (راوي القصة)، وكانت الشمس قد بدأت تبزغ، فحفر من ناحية الغرب، وعمّق الحفر، ونام متخذاً ظل رأس الرجل الثالث وِجَاءً له من الشمس، ويبدو أن سَهَر الذئب يكون عادة في الليل، فلما طلع النهار

آن أوان نومه.

فلما أحس الرجل أن الذئب دخل في نوم عميق، بدأ يحرك كتفيه يميناً ويساراً، مستفيداً من الحفر الذي أحدثه الذئب عند كتفه، فصار التراب ينزل قليلاً قليلاً، وصار يحاول أن ينزله إلى ما تحت قدميه، ليرفعه تدريجاً. فلما وصل إلى الحد الذي يسمح له أن يصل بفمه إلى عنق الذئب، أطبق على عنقه، وأخذ يضغط بأسنانه بكل جهده، جهد اليائس المستميت، فاستيقظ الذئب مذعوراً، وحاول أن يفك عنقه من هذه «الكلابة» المطبقة بكل ما يستطاع من جهد، والرجل يحاول أن يستفيد من خلخلة التراب في هذا الجذب المتواصل السريع الشديد، وأخيراً أفلت الذئب، وفي فمه أسنان الرجل متناثرة، وهرب هروب الملحوق،

ولم يلتفت خلفه.

أخذ الرجل يكمل ما بدأه من محاولة إنزال التراب إلى ما تحت قدميه، ويعتلي عليه قليلاً، حتى استطاع أن يكون في وضع أخرجه من الحفرة بجهد جهيد، وأخذ يتدحرج على الأرض إلى أن وصل إلى «مشب» (موقد) النار، التي تركها القوم، ولم يزل فيها (مَلَّة) بقية جمر، فوضع ظهره على ما تبقى منها، أملاً في أن تحرق جزءاً من الحبل، فأحرقته فعلاً، وأحرقت جزءًا من جلد ظهره، فسجد لله شكراً، وأدرك أن ما أصابه وزملاءه ما هو إلا عقاب من الله لمن داوموا على أذى ضيوفه ـ جل وعلا ـ وعاش الرجل إلى ما قبل خمسة عشر عاماً، ويقول راوي الخبر إنه رأى آثار الحرق في ظهره أبيض كأنه بَرَص، وذكر أنه تاب توبة نصوحاً،

وأن الله منَّ عليه بنعم جاءته من طريق حلال، وأصبح يعيش في حياة رغد[1].

ذئب الشمسية:

وكنت في مجلس لصاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز، وجرى الحديث عن اتساع الرياض بسرعة، وأخذ الحديث يدور عن مقارنة الحاضر بالماضي، فقال سموه إن ذئباً هاجم أغناماً في نخل الشمسية، التي هي اليوم في وسط الرياض، وأنهم لحقوه، وقتله سموه بمسدس عند مبنى وزارة المالية الحالي، أي في الخلاء.

---

(١) القصة في بعض أجزائها قد تكون مهزوزة، ولكنها هكذا رويت من رجل طاعن في السن، وقد يكون لمرور الزمن وحماس القاص دخل في هذا.

الدوخي والذئب:

زارني في ديوان المراقبة ناصر الدوخي ـ رحمه الله ـ وقص عليَّ قصة طريفة بطلها ذئب، قال:

كنت أميراً في «ضبة» من قبل الأمير فيصل بن عبدالعزيز عندما كان نائباً لوالده الملك عبدالعزيز في الحجاز ـ رحمهما الله ـ، وجاءني أمر بمطاردة قاتل هارب. قال: فأخذت معي «مريّاً» و «بوارديّاً»، وذهبنا بحذر في أثر القاتل، ترفعنا أرض، وتخفضنا أخرى، وسرنا من واد إلى حزن، ومن سهل إلى وعر، تستقبلنا أرض، وتودعنا أخرى، ثلاثة أيام. فاعترضنا جبل فتسلقته، يشرف على واد فيه أغنام «مُفَلِّيَة»، وأخذت أنظر «بالدربيل» (الناظور)، لأكتشف المكان ومن فيه، فقد يكون القاتل هناك.

كان هناك أغنام منتشرة في روضة هناك، وراعٍ وراعية على طرف الروضة، بينهما غزل حميم، فنظرت فإذا ذئب مُقْعٍ وراء صخرة، يراهما ولا يريانه، وعينه على الأغنام، فلما تقارب الراعي والراعية في غزلهما، وأيقن الذئب أن الفرصة قد واتته انقضّ مثل الصاعقة على الأغنام، فأخذ (يمرع) بطونها بسرعة فائقة، وكان البواردي بجانبي فقلت له:

الذيب، الذيب، اطرح الذيب.

وأشرت بإصبعي حيث هو، فأطلق عليه النار من بندقه، فقتله. فارتعب الراعي والراعية وتباعدا، فقال المري، وقد لحق بنا، متسائلاً:

هل قتلتم الرجّال؟

قلت له: «لا، ولكنا قتلنا مجرماً آخر».

إنني أستسمح القارئ في هذا الاستطراد في الحديث عن الذئاب، وقد حملني عليه ما تعودته عند كتابتي «أي بُني»، وكتابتي «إطلالة على التراث»، إذ كنت عندما أبدأ موضوعاً أحاول أن استقصي جوانبه، وما أعرفه عنه، أو ما أجده متصلاً به في المراجع، وكان بعض هذا رغبة مني في إبعاد الملل عن القارئ، والملل يأتي أحياناً بسرعة من جرّاء سرد المعلومات، وتواليها، وقد سميت الاستطراد إحماضاً، قياساً على ما يفعل في «تعليف» الإبل، فهي إذا أكلت الأخضر الرطب اشتاقت إلى اليابس مثل العرفج.

وفي نطاق هذا الاستطراد أقول إنني لم أر ذئباً بعد ذلك الذي رأيته في الوسيطاء في الضبط، إلا في

حديقة الحيوان، يجول ويدور، ولا يستقر، ورأيته مرة من بعيد، في حدود الثمانينات، أنا وابن عمي، وهو خبير بالبر، ونحن جلوس في الجنادرية، عندما كانت روضة بكراً، فرأينا ذئباً يهرول آتياً من ناحية «العرمة» قبل غروب الشمس متجهاً إلى «النظيم»، فقال ابن عمي: انظر، فظننت أن ما نظرت إليه كلب. فقال: إنه ذئب، انظر إلى ذيله منساباً خلفه، ولو كان كلباً من كلابنا «الهاملة» لرأيت ذيله أعوج مرفوعاً.

ورأيته ميتاً في رحلة مع بعض الزملاء إلى حائل، ومررنا ونحن عائدون من هناك بمضرب بادية، ووقفنا عندهم، فأرونا ذئباً كأنه جحش في حجمه ولونه، وقالوا إنه كاد يفني أغنامهم، فاحتالوا عليه، ونصبوا له شَرَكاً وقع فيه، وذلك بأن حفروا حفرة

غطوها بغطاء خفيف، وجعلوا في جانب منها خروفاً، لا يُوصَلُ إليه إلا عن طريق هذه الحفرة، أما الجهات الثلاث الأخرى فعليها عوائق، فجاء، وأراد أن يصل إلى الخروف، فمر من فوق الحفرة، فخانه غطاؤها، ووقع في الحفرة فقتلوه، وعدّوا ذلك اليوم عيداً.

وقصص الذئاب في نجد كثيرة، ومن أراد المزيد فعليه بكتاب الأخ إبراهيم العبدالله اليوسف: «قصة وأبيات» (ص: ٨٩/ ١) ففيه قصة طريفة عن شراسة ذئب، ولآمته، وإصراره.

حمد العبدالله الطريف:

إذا ذكرت «الضبط» تذكرت الأخ الحبيب حمد العبدالله الطريف، خدن لا أنساه، وكيف يُنْسَى صديقٌ

طفولةٍ حبيبٌ عزيز، وذاكرة المرء تحفر في تربتها عمقاً تغرز فيه جذور المحبة.

كان الحبيب حمد العبدالله الطريف يكبرني بما يقرب من العام، وكان يذهب من الديرة إلى الضبط عصر الخميس لزيارة أخواله السماعيل، فكنت إذا تقرر أن أقضي يوم الجمعة عند أهلي القواضىَ «أتواعد» أنا وهو، ونمضي سوية. نذهب معاً، وغالباً ما نسلك الطريق الذي يمر بين المزارع وبيوت الضبط، نمر بجادة بين مزرعة والمقبرة، ونلهو، ونحن نسير، كما يلهو أكثر الأولاد، هذا حجر نضربه بمقدم الرِّجل، وهذا غصن نقطعه من الأثل، أو نتسابق في بعض الطريق. ونصل إلى الضبط، وأهلي مطمئنون أن رحلتي بصحبة أبي عبدالله مبهجة. أدام الله عليه الصحة والعافية، وهنأه

بأهله وأولاده وأحفاده.

نحن الصغار لا نسير عادة إلى الهدف بخط مستقيم، فالخط المتعرج هو سيرنا في العادة، أيّ شيء يجتذبنا إلى أيمن الطريق، ويخرجنا عن طريقنا، وأي أمر ملفت للنظر، مهما كان تافهاً، يأخذنا يساراً، ولهذا تأخذ رحلتنا وقتاً أكثر من وقت الكبار، لأن الكبار لا يهمهم ما يهمنا، يهمهم الهدف الأساس. ونحن، أنا والأخ حمد العبدالله الطريف اعتدنا أن نسلك طريق حائط عباس وحائط «المندسّة»، نفضله لأن فيه أشياء لا توجد في طريق «المجرى»، ففي الطريق الزراعي القلبان العمياء مثل: «صقصق»، وسميت عمياء، لأن ماءها قد جف، وتهدمت جدرانها، وكانت الأمطار والأتربة تملؤها أحياناً، ولا تصبح بالعمق الذي كانت عليه عندما

كانت «مبصرة»، يستقى منها يومياً، فتنزح وتجم. والآن وقد نقص العمق فلا يخيفنا أن نطل فيها. أما الآبار العميقة، وفيها بعض الأتربة، وبقايا أمطار فقد كنا نقف عندها، ونرمي فيها أحجاراً محاولين بهذا العمل أن نقيس عمقها بالوقت الذي يأخذه الحجر ما بين رميه إلى وصوله لمستقره في قاع البئر.

العم عبدالله السليمان الحمدان:

في حديثي عن والدي ـ رحمه الله ـ ألمحت لبعض جوانب الصلة بينه وبين العم عبدالله السليمان، وأضيف هنا أموراً تكمل بعض الصور عنه ـ رحمه الله ـ كان العم عبدالله كريماً بطبعه، قبل أن يلتحق بالدولة، ويكون عنده ما ينفق منه بسخاء، والكرم محمدة معروفة عند

الناس، ومقدرة منهم. كان فقيراً في أول نشأته، ومثل بقية شباب عنيزة لم يجد فيها فسحة من الرزق يبقى من أجلها، فسافر إلى الهند والأحساء، طلباً للرزق. ومن أبرز صفاته ـ رحمه الله ـ أنه ليس عنده عقدة من سابق فقره، بل يجاهر به، وكأنه يباهي به، ولعله بهذا يؤكد أن المجد الذي كسبه ليس وراثة وإنما الفضل فيه لله ثم له، إذ أكرمه الله بخدمة الملك عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ ونيل ثقته، لميزات اكتشفها فيه.

والناس عادة فريقان، فريق عندما يغنيه الله، مثل العم عبدالله، يجاهر بماضيه ويباهي، للشعور الذي وصفناه، ومؤداه: «ليس الفتى من يقول كان أبي».

والفريق الثاني يحاول جاهداً أن يُخفي ماضيه عندما كان فقيراً، ويوهم أنه ولد وفي فمه ملعقة من ذهب،

ويحرص أن يتجنب أولئك الذين يعرفون ماضيه، ويتصنع في مظهره، ويكذب عن ماضيه بقصص وحوادث متخيّلة.

هناك قصة يرويها العم عبدالله ـ رحمه الله ـ على رؤوس الأشهاد، وأمام علية القوم، الذين بينهم من يحسده على ما وصل إليه، ولكنه، وهو يعلم هذا، يرويها بلسان الواثق من نفسه، وهو بهذا يمجّد سيده الذي أعطاه الفرصة أن يبز أقرانه، فكانت المكانة التي أعطاه إياها الملك عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ تتيح له التقدم في عنيزة على أكبر رجالها.

كان جدي قد ساعد العم عبدالله على السفر إلى الهند، لإيمان جدي بالفرص التي أمام من يسافر إلى هناك، حسب التجارب المتكررة. ولم ينس العم

عبدالله هذا، ومعروف عنه ـ رحمه الله ـ الوفاء بجانب الكرم الذي ألمحت إليه سابقاً[1]، فكان بعد أن حباه الله المنزلة التي وصل إليها، إذا جاء لعنيزة فأول قهوة تكون عند جدي، ويأتي لحضورها أمير عنيزة وكبار رجالها، بعد صلاة الظهر، وفي إحدى المرات وقد انتهى وقت القهوة، واقتربت صلاة العصر خرجوا متجهين إلى الجامع، فلما «وازنوا» حويط «المرشد» قال للذين معه:

«قفوا، يا جماعة، هذا المكان يذكرني بحادثة عندما كنت «أتسبب» بعنيزة، وأنا صغير (وأتسبب يعني أتعاطى التجارة بطريقة متواضعة) ابتعت عُصيّاً من شخص، ودفعت له ثمنها ريال فرانسا، ولكن البائع

---

(١) الجزء الأول، ص ٩٤، ١٠٠ وما بعدها.

أنكر أني دفعت له الثمن، فاضطررت أن أدفع له الريال مرة أخرى، واللهِ إنها لاتزال جمرةً بقلبي حتى الآن».

هذه القصة رواها لي العم سليمان العبدالله البسام - رحمه الله - يقول العم سليمان أني سألت جدك:

ألم يخبركم من هو البائع الذي أنكر دفع الثمن؟

قال جدي: لم يخبرنا ولم نسأله عنه.

هكذا رجال الأمس، ناضجون في فكرهم، متقنون لتصرفاتهم، متحكمون بما يأتون، وما يذرون.

لم يحقد العم عبدالله على الرجل الذي أشعل جمرة في قلبه، ولم يحاول أن يشوه سمعته، وكلمته مسموعة حينئذ، فلم يذكر اسمه، وهذا أوجب له الاحترام والتقدير، ومثل هذا التصرف يكشف بعض المزايا

التي اكتشفها الملك عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ، وهو الصقر الذي يعرف الرجال، ويعرف كيف يستعين بهم ومتى وأين.

وكان كل من كان مع ابن سليمان يودون معرفة ذلك اللئيم، ولكن رجولتهم أبت عليهم أن يحرجوا ابن سليمان، مادام هو اختار عدم البوح باسم الرجل، رحمهم الله، فقد كانوا قناديل في مجتمعهم.

نعود فنقول: إن ثقة ابن سليمان بنفسه، جعلته يقف عملاقاً شامخاً على جثة الفقر، ويؤكد أنه من معدن استحق أن يختاره الملك عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ لما اختاره له، والملك عبدالعزيز نقاد يعرف الدرهم: الصريح من المغشوش.

وقصة مجيء العم عبدالله السليمان الحمدان (أصبح يشار إليه بابن سليمان ويكتفى بذلك) لخدمة الملك عبدالعزيز معروفة عند أهل زمانهم. كان لابن سليمان أخ أكبر منه سنّاً، وكان في خدمة الملك عبدالعزيز وقريباً منه في هذه الخدمة، ومقدما فيها، واسمه محمد، وبعد مدة بدأ سمعه يثقل، فقال للملك عبدالعزيز:

إني بحالتي هذه لا أصلح للخدمة التي شرفتني بها، لأن الأعمال التي عندي سريّة، فإذا حدثتك عنها فلابد أن أرفع صوتي، فعلَ كل أصم، وإذا حدثتني أنت فلابد أن ترفع صوتك، وبهذا يظهر ما نُسِرّ.

وقال له:

إني في زيارتي إلى الهند للاستشفاء، أخبرني الطبيب أن المرض ليس في الأذن، وإنما هو في الدماغ، وأنه لا

أمل في بُرئه.

لهذا، لي أخ أصغر مني نابه في أمور الحساب، فلعلكم، إن جربتموه، يكون فيه الخير، واسمه عبدالله.

وبهذا دخل العم عبدالله السليمان خدمة الملك عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ فوجده نافعاً للغرض الذي اختاره له، فأعطاه صلاحيات واسعة، وأثبت جدارة عندما قامت الحرب مع اليمن، واستطاع أن يسعى وينجح في تلبية حاجة الملك عبدالعزيز إزاءها.

وأصبحت شهرته تطبق الآفاق، وأصبح اسمه العم عبدالله، أو ابن سليمان، أو الوزير، وكُلُّ هذه أسماء له يختار المرء منها ما يشاء، وكلها إذا قيلت تدل عليه.

وقد تحدثت عن صلة والدي به عند حديثي عن

والدي[1]، وكان والدي والعم عبدالله يكن كل واحد منهما احتراماً للآخر. وكان العم عبدالله يدخن، والوالد لا يطيق الدخان، والعم عبدالله يعرف هذا عنه، ولهذا ـ رحمه الله ـ كان إذا علم أن الوالد قادم إلى مجلسه، وفي يد ابن سليمان سجارة، يطفئها. وكان الوالد يقدّر هذا ـ رحمهما الله جميعاً.

حيرة:

يقول المثل العامي: «إذا أردت أن تُحيّره فَخَيِّره»، وأنا الآن في هذا الموقف، فأمامي من المواضيع التي لها مساس بذكرياتي: القمح، النخلة، البقرة، الدجاج، ولا أدري بأيها أبدأ، فكل واحد من هذه الأشياء فيه جاذبية. وعلى اعتبار أن الذكريات كانت عن مرحلة

(١) راجع الجزء الأول، ص ١٠٠ وما بعدها.

الصغر فأقرب الأشياء إلى هذه المرحلة هي الدجاج، فيحسن أن أبدأ بهذا الموضوع.

الدجاج:

في عنيزة من لا حوش لبيتهم، ولا (حائط) لهم فلا دجاج عندهم، ويحرمون من فائدته، ويحرم أبناؤهم من متعة لا يقدّرها إلا الصغار، ويصبح الدجاج في بعض البيوت عنصراً مكملاً لمحتوياته.

لذلك كان الدجاج في بيتنا مهماً، ولا أذكر أنه خلا من الدجاج في أي وقت من الأوقات. وكان الدجاج عادة هو في حوش البقر، وفي صفته، ولا يتعداهما إلا نادراً. وكان عدد الدجاج عندنا يقل إلى الخمس ويكثر إلى العشر، وهو يأكل من بقايا الطعام وما قد

تخرجه الأبقار مما قد يكون علق ولم يُهضم في بطنها من حبوب في الأعلاف.

تكمن أهمية الدجاج في بيضه الذي يحفظ، ثم يستفاد منه لعمل «الكليجا» البسكويت المفضل في الرحلات، وخاصة في رحلة الحج، لانه يتحمل الخزن ومرور الأيام عليه دون أن يتأثر، والبيت لا يخلو من الكليجا أبداً، لأنه «الشرط» (المكافأة) للصغار على إجادة عمل، أو القيام بخدمة، ويفيد عند اشتداد الجوع بين الوجبات، وقد يشتهيه المريض أكثر من الطعام المطبوخ.

وأهميته الأولى تكمن في لزومه لرحلة الحج، لأن الطريق طويل، والرحلة قد تأخذ شهراً إلى مكة من عنيزة، ولا تخلو القافلة من بعض النساء، وهن يحتجن

إلى «الكوائج» (جمع كواجه) (شقدف، هودج)، مما يجعل السير بطيئاً، ويجعل الإبل تحتاج إلى إراحة بعد مسافة معينة، تزيد أو تنقص حسب الفصل من السنة، صيفاً أو شتاءً. فإنزال الهودج وحمله يحتاجان إلى وقت إضافي، وجهد زائد. وقد يحمل البعير ـ وهو الغالب ـ امرأتين متعادلتين على جنبيه، والجمّال الذي يقود الجمل يسير بجانب البعير، وبيده الرسن، خطام البعير، مستعداً لأي طارئ، إضافة إلى هدي البعير ضمن القافلة إلى الطريق.

أحياناً يسمح لنا أن نجمع عدداً من البيض «نرجّن» (تجلس وتحضن) عليهن الدجاجة، نجمع لها خمساً أو عشراً، ولا ننتظر جمع أكثر من هذا خوفاً على البيض إذا طالت عليه المدة أن «يمرج» (يفسد)،

وهذا إذا وضع فاسداً تحت الدجاجة، يأخذ حيزاً تحتها، أو تبعده هي، لأنها تعرف الصالح من غيره وهي مثلنا حذرة، وتخشى على فساد البيض فإذا صادف أن أخذت تبيض في مكان لم يدر عنه أصحابها، وذلك عندما تكون في إحدى المزارع، فإنها (ترجن) على البيض في وقت هي تعرفه، وتختاره. وليس هناك أجمل منها إذا ما فاجأت أصحابها، وأقبلت «تنبر» (هذا صوتها) أمام فراخها، فخورة بهم.

أما في بيتنا فلابد من وضعها مع بيضها بعناية في مكان مظلم، وغالباً ما يكون هنا بيت للدجاج مهيأ لها تحت معلف البقرة، توضع فيه هي وبيضها وتحت البيض بعض التبن، حتى يقيها أذى الأرض.

وفي عام ١٣٥٣هـ، وكانت والدتي في الحج، فأرادوا

أن ينسوني بُعدَها، فاقترحوا أن «أرجن» الدجاجة التي أحبها، فأخذتها هي والبيض إلى الطابق الثاني، ووضعتها في بويت تحت الدرج الصاعد من المصباح إلى السطح، وكان مثالياً لمثل هذا، له باب جميل، مزخرف بعدة ألوان وعمري إذ ذاك تسع سنوات تقريباً، وصرت بعد أن مرت عدة أيام أطل بين آن وآخر عليها، إلى أن جاء يوم، وكنت عائداً من المدرسة، فأسرعت إلى بيت الدجاجة لأرى إن كان هناك جديد، ولدهشتي المتناهية، وفرحتي التي لا حد لها، وجدت أن هناك أربعة فراريج، قد فُرخت في ذاك الصباح.

ذهبت راكضاً إلى حيث تجلس النساء، وكن لا يعرفن أني قد جئت من المدرسة، ولا أني صعدت حيث

ترقد الدجاجة على بيضها، وقد أفحمني الركض، وأنا أقول:

أربعة.. أربعة!.

فلم يعرفن قصدي، وبقين ينظرن إليَّ، وأنا أنظر إليهن، حتى استطعت أن أبيّن قصدي مما أراحهن، وبلاشك أفرحهن.

وكانت فرحتي بالفراخ أكثر من فرحتي بأي شيء آخر، لطول انتظاري ومتابعتي. وبقي هذا المنظر في ذهني حتى الآن. وقد رابطت بعد ذلك أمام بويت الدجاجة، أطعمها وأسقيها، وأتمتع برؤية أبنائها خارج بيتها، وهي «تنبر» أمامهن، فيتبعن صوتها الأجش من جراء طول الحضانة، وببقاء فمها مقفلاً طوال مدة حضن البيض، أما أصوات الصغيرات فخلاف

أمهن يملأ الأفق وَصْوَصَةً صافية متتالية كأنهن في سباق أصوات.

(الكتكوت في الحجاز والفرخ في نجد) عندما تفقس البيضة، ويخرج الفرخ لا يعرف الذكر من الأنثى حتى ينمو «العُرف» (التاج) على رأس الديك الصغير، فتتوالى بعد ذلك الفوارق بين الأنثى والذكر، والأذان هو العلامة الثانية، ويبقى الأذان غير متقن إلى أن يشتد عود الديك. ويبقى الديك الصغير مع مجموعته التي فقس معها، إلى أن يكبر فيشعر والده أنه ضيف غير مرغوب فيه، فيتخلص أصحابه منه بالذبح أو البيع. فإذا كان الأب «ألدم» (ملتصق جانبي العُرف)، والجديد «أفرق» (مقسوم العرف إلى قسمين، بينهما حاجز صغير) تخلصوا من

الأب، وأبقوا الابن، والديك الأبيض عندهم خير من الأحمر، رغم جمال الأحمر.

الجاحظ والفراخ:

اهتم الجاحظ بدراسة حياة الحيوان، وفي كتاب «الحيوان»، جمع كل معلوماته عن الحيوانات، وعرض نتائج تجاربه التي أجراها عليها، وخرج بنتائج مذهلة. ومن جملة ما درسه الدجاج، وقد أخبر عن طريقة يُعرف بها الديك من الدجاجة بمجرد أن يخرج أحدهما من البيضة، وذلك بأن يمسك الفرخ من منقاره، ويرفعه، فإذا «فرفر» فهو ديك، وإن بقي هاءئاً فهو دجاجة. وكنت، في إحدى زياراتي للندن، أشاهد فيلماً وثائقياً يابانياً عن التفريخ الصناعي للدجاج، فرأيت فتاتين

على جانبي سير متحرك عليه فراريج، فتلتقط كل فتاة منهما في جهتها فروجاً من فوق السَّير، وتمسكه من منقاره، وترفعه بسرعة، فإن فرفر رمته في سلة على يمينها، وإن لم يفعل رمته في سلة على يسارها. وشرح المعلق أن هذه الحركة هي لمعرفة الديك من الدجاجة في هذه المرحلة المبكرة من السن.

والفخر حقيقة للجاحظ الذي سبق اليابانيين وغيرهم في التفريق بين الديك والدجاجة بمجرد أن يخرجا من البيض. والسبق ليس غريباً على الجاحظ فيما يخص الحيوان وغيره، لأنه عندما يهتم بأمر ينصرف بكل إمكاناته العقلية والجسمية إليه. وهذا هو الذي أمكنه من تأليف كتاب «الحيوان»، وهو كتاب ضخم جامع، احتوى على كثير من المعلومات التي جمعها من

غيره، ومن مشاهداته الدائبة، وبحوثه الدقيقة، وتجاربه المتواصلة عن الحيوانات، والطيور، والحشرات، وغير ذلك مما رأى أنه يدخل في نطاق مدلول كتابه. وما جاء في كتابه يدل على صبر وأناة، وعقل ونباهة، ودقة ملاحظة ورغبة أكيدة في الوصول إلى كُنه الأشياء، وعدم الاكتفاء بالظاهر، وهو يسير في هذا بطرق علمية مبنية على أصول البحث والتنقيب والتدقيق والمقارنة.

آفة الفراخ:

رغم أن الدجاج يبيض كثيراً، ويُفرّخ من هذا البيض عدد غير قليل، إلا أن ما يبقى بعد التفريخ قليل، والسبب أن الآفات تتوالى على الفراريج، ولهذا يقول المثل العامي عن الشيء تنزع منه البركة: «إنه

مثل أولاد الرجنة الصامل منه قليل»، أي مثل فراخ الدجاجة الذي يبقى حياً منها على كثرتها قليل، لأن بعضها يموت من جرّاء سقوطه في الماء، وبعضها تدوسه البقرة بأقدامها، وبعضها يخطفه القط، وبعضها تأخذه الحدأة، وهكذا حتى لا يبقى إلا القليل.

صفات الدجاج:

الدجاج المعروف في تلك الأيام هو الدجاج البلدي، قبل أن يُعرف الخارجي، وألوانه تختلف فهناك الدجاجة البيضاء، وهناك الدجاجة السوداء، وهناك الحمراء (البُنيَّة)، وهناك الدخناء، وهناك الزبداء، وللأخيرة مقام مفضّل عند الناس[1].

(١) ربما أن السبب في هذا لونها، أو ـ كما كان شائعاً ـ الظن أن بيضها كبار.

وأفضل الديوك الأبيض الأفرق، رغم أن اللون الأحمر أجمل ـ كما سبق أن قلت ـ لما فيه من لون زاهٍ. والأبيض، في عُرف الناس، يجلب الملائكة، خاصة إذا كان صوته مميزاً، ونَفَسُهُ طويلاً، وعادة قبل أن ينقطع صوته يأتي بصوت قصير مخالف، يقال عنه حينئذ «هلل»، أي ختم الأذان بقول: لا إله إلا الله.

والشباب عادة يحرصون على الديك الذي هذه صفاته، ويفاخرون به، ويدفعون به أغلى الأثمان. وليس أهل البيت وحدهم الذين يفاخرون به، بل إن الجيران كذلك يَعُدّونه مكسباً لوجوده في بيت يجاور بيتهم، ويعدون أنفسهم شركاء فيه، فأذانه مشترك، يسمعه جيران البيت من جميع جوانبه، ويصغون إليه وينتظرونه. وأكاد أجزم أن ديكاً هذه صفاته، يعرف

مدى الفخر به، واعتزاز من حوله به، سواء من زوجاته، أو من مالكيه.

ولا أذكر أن ديكاً هذه صفاته ذُبح، وإنما يموت حتف أنفه، بعد عمر طويل.

أصوات الديك:

وأذان الديك ليس هو الصوت الوحيد الذي يأتي منه، بل هناك أصوات متعددة، والأذان هو الأساس في تصويته، وله أوقات معينة في النهار، ويقول الناس إنه يتجاوب مع أذان الملائكة في السماء، فهو يسمع ما لا يسمعه الناس.

وهناك أذان الانتصار، فبعد أن يغلب عدوه في «مناقدة» وعراك يُؤذِّن، وكأنه يشكر الله الذي أعطاه

هذا النصر المؤزر، متجاهلاً ما قد يكون هناك من دماء، لعله يراها نياشين الشرف.

وهناك الأذان الذي يعقب إنجلاء الخوف، كأن يرى قطّاً، أو يجري وراءه طفل، أو يحذفه بحجر، أو يضربه بعسيب.

وهناك صوت «قرقرة» يصدره تحذيراً لزوجاته، وتنبيهاً لهن بقرب خطر، كأن يرى قطاً أو حدأة. فتتنبه الزوجات فترفع رأسها إن كانت تأكل، أو تقترب منه، وتجتمع حوله. فإذا ما انتهى الخطر أعقبه بالأذان المعتاد، وكأن هذا كله صفارات إنذار. ونحن نعرف القرقرة التي تنبه عن الحدأة (الجليماء)، فلها مَدَّةُ صوت طويلة نوعاً ما، فإذا سمعناها رفعنا رؤوسنا للسماء، فنرى الحدأة، أو نرى حمامة، ولكنه لا يفرّق

بينهما، ويأخذ بجانب الحزم.

وهناك صوت يصدره فيه نغمة حنان وعطف، ويصدره عادة عندما يعثر على حبة قمح، فتأتي الضرات ركضاً، يتسابقن، فيعطي الحبة لصاحبة الحظ منهن في ذلك اليوم، برّاً بها، فتلتقطها منه تحت نظر الأخريات، وغيرتهن، ولا أظن أن أي واحدة منهن تنجح فيما لو احتجت، لأنها في يوم ما كانت صاحبة الحظوة.

استفزاز الديك:

يحب الصغار العبث حينما يجدون إلى ذلك سبيلاً، وقد وجدوا في الديك مهمزاً فهمزوه، لاحظوا أن الديك لا يطيق رؤية ديك آخر يدخل حظيرته مع نسائه، فإذا حصل هذا نشبت معركة شرسة بينهما،

يُدمى فيه «العُرف»، ويتطاير الريش حتى يتخاذل أحدهما «فيعسب» أو «يقندل» (يتخاذل وينسحب)، وينزوي في مكان، وعليه ذلّة وخزي. لم يكن بالإمكان أن نأتي بديك آخر، ونوقد نار المعركة بينهما، فلا نستطيع أن نشتري واحداً، ولا أن نستعير آخر، ولو تم هذا فلا يسمح لنا أهلنا بهذا، لأنه محرّم، وفعله جريمة.

لجأنا إلى حيلة تقوم مقام ديك آخر، نأتي بخرقة حمراء، نطويها على يدنا، ونحركها حركة استفزاز أمام الديك، ومع التكرار يفهم القصد، فينقضّ كالشهاب على قطعة القماش الحمراء، ويحاول تمزيقها، ونحن نحاوره، وننفجر ضاحكين عندما يهاجم، ويظن أنه نجح في إصابة خصمه، وخصمه لم ينل منه شيئاً، ولم يؤلم عُرفه، ولا نتف شيئاً من ريشه، ويأخذه الزهو

فينسحب منتصراً.

نقوم بهذا العمل في غفلة من أهلنا، لأن هذا العبث مع هذا الطائر الأعجم لا يعجبهم. وفي يوم من الأيام اكتشفوا الأمر صدفة، وعلموا ما كنا نقوم به في الأيام التي مضت، ولم يخطر في بالنا أن الأمور سوف تأتي بهذه الصورة، فهي بعيدة عن تفكيرنا، ويعجز عن الوصول إليها خيالنا. والقصة كما يلي:

كانت زوجة عمي ـ رحمها الله ـ قاعدة في «المقدمة»، ساندة ظهرها على جُدَيِّر مرتفع، وكانت تضع على كتفها رداءًا أحمر، فأبصرها الديك، وهو على مستوى من الأرض يتساوى مع كتفها، لأن الأرض التي هو عليها أعلى من الأرض التي هي قاعدة[1] عليها.

(١) القائم يقعد، والمضطجع يجلس.

وغلبته تجربته فانقضّ على كتفها، فدخلت أرجله ومخالبه في شعرها الطويل، وانزعجت هي، وقامت مذعورة، فبقي هو معلّقاً في شعرها على ظهرها، فلا هي خلصته، ولا هو خلّص نفسه، وكل حركة منها تزيد الأمر تعقيداً، ولم ينته هذا المشهد المضحك المؤلم إلا بعد وقت.

تعقدت الأمور، وبدأ البحث عمن وراء هذه التمارين العدائية، وأخذ كل واحد منا، الصغار، يتهم الآخر، والحقيقة أننا كلنا كنا مشتركين في هذا العمل الوحشي.

وعملنا هذا لا شيء بجانب ما يعمل في الشرق من قبل محترفين يلصقون أمواساً في أرجل الديوك، حتى يكون الجرح قاتلاً، ويكسب صاحب القاتل الرهان.

صوت الدجاجة:

تحدثنا عن صوت الديك وأنواعه، والآن سوف نتحدث عن الصوت الذي تصدره الدجاجة؛ فالدجاجة عادة لا صوت لها إلا إذا أزعجت، أو شاهدت ما يخيفها مثل القط، أو الأولاد، وما أكثر ما يزعجونها، بالركض وراءها، أو حذفها بالحجارة. وأجمل صوت هو «قرقرتها» عندما تحصرها البيضة، فإنه يُعْرَف من هذا الصوت أنها على وشك أن تبيض. هل هذا الصوت معاناة من وضع البيضة، أو إنه إعلام لمن حولها بذلك.

وغالباً ما يصيح الديك عندما تخرج البيضة، وهو صياح يختلف عن الأذان، ولكنه عالٍ مثله. وكنا نعرف الوقت الذي تقترب البيضة فيه من الخروج،

فهناك تحت الذيل عظيمان يكونان في الوقت المعتاد ملتصقان، ثم يبدآن، عندما تقبل البيضة على الخروج، يبتعدان، فيتسع ما بينهما تدريجاً، فتكون في أول الأمر بسعة أصبع، ثم أصبعين ثم ثلاثة أصابع «ضك» أي بضغط على الأصابع الثلاثة، ثم ثلاثة «خق»[1] أي بسعة، وحينئذ تذهب الدجاجة لتبيض.

هذا الاعتناء في القياس يدل على قلّة صبرنا ونحن صغار، أو حرصنا على أخذ البيضة قبل غيرنا.

بجانب فائدة الدجاج بيضاً ولحماً وتجارة، هناك الريش الذي يحرص على جمعه، وتنظيفه ليستفاد منه «دحواً» (حشواً) للمخدات.

---

(١) الطبيب يقيس قُرب الولادة من بُعدها بفتحة عنق الرحم، تبدأ بها يسمح بدخول أصبع، ثم أصبعين، ثم ثلاثة، وهكذا حتى لا يبقى على الولادة إلا دقائق.

الطبيلة في الدجاج:

أمر الدجاج ليس باسماً كلّه، فمن الأمور التي تشغل ذهن مقتني الدجاج مرض «الطبيلة» وهو داء يأتي تحت الجناح، ويقضي على الريش الناعم هناك، وهي بقيعات سوداءتنتشر تحته، وربما كانت جرثومة تنمو بسبب الحرّ في الصيف. وكنا نداوي الطبيلة، بأن نأتي بريشة، ونغمسها في القاز (الكيروسين)، وندهن المكان المصاب بهذا القاز عدة مرات، وهذا دواء ناجح بإذن الله. وقد يكون لوجود الدجاج قريباً من البقر دخل في نمو هذه الجرثومة، أو نشاطها. وعلامة إصابة الدجاج بالطبيلة أن نرى إحداهن وقد أبعدت جناحها عن جنبها، وهذا دليل أن ضغط الجناح على المكان الذي به الطبيلة يؤلمها، ويؤثر على صحتها.

الديك وصرة الباب:

صفة الرحى صفة يُدخل عليها من «المقدمة»، وهي فسحة تحت إحدى الغرف، إحدى جهاتها الأربع مفتوحة، وهي مكان جلوس النساء المفضّل، وفيها يستقبلن الزائرات من الأقارب، وفيها يوضع «جداد» النخل في آخر الموسم، فتكاد تكون رئة البيت.

وسُميت «صفة الرحى» بهذا الاسم لأن فيها الرحى والمجرشة وإحداهما لطحن الحب والثانية لجرشه، الأولى تجعله ناعماً، والثانية تكسره تكسيراً، وقد استدل الديك والدجاج على أن هذه الصفة فيها حب، سواء كان في وعاء مكشوف، فتهجم عليه في غفلة من أهل البيت، أو كان حبيبات متناثرة على الأرض. وكان الديك يعرف صرة باب الصفة، فإذا

سمعها جاء «مُمَّحِتاً» (مسرعاً)، ومن ورائه زوجاته اللواتي هنَّ حوله دائماً مثل ظله، وسرعته المتناهية تجعله أحياناً عند المنحنيات ينزلق، ويكاد يقع على جنبه، ولكنه مع هذا لا يرعوي، فهو يفعل هذا عندما يسمع الصرة، وأحياناً في المنحنى يصطدم ببعض الواقفين أو الجالسين. ويبدو أنه لا ينسى الأخطار فلا يبقى في ذهنه إلا مكسب هذه الحبيبات التي يجدها في هذه الصفة.

لاحظنا هذه الحركة منه، وعرفنا أنه واقع تحت سيطرة الجشع والطمع، فأردنا أن نضحك منه، معتمدين على أن هذا الطمع سوف يعمي عينيه عن غيره، فصرنا نغشه، نفتح الباب، فيسمع هو صرير الباب على محوره الذي يدور عليه، فيأتي

«طائراً» لا تكاد قدماه تمس الأرض، وقبل أن يصل إلى المنحنى نقفل الباب، فإذا وصل، ووجده مقفلاً وقف مندهشاً، ينظر إلى الباب، ثم إلى يمينه ثم إلى يساره، ثم إلى زوجاته، وكأنه يقول لهن: هل ترين ما أرى؟ هل لديكن تفسير؟. ويقف هكذا برهة يزن الأمر، ولعله يستذكر الثواني السابقة، وعيناه زائغتان، يرفع نظره ويخفضه،، وربما كان كل هذا محاولة منه في التوفيق بين ما سمعه من صوت يدل على فتح الباب، وما وجده من أن الباب مقفول. أين الخطأ؟ هل هناك وهم في سماع الصوت؟ فقد يكون لأن الحقيقة واضحة، فالباب مقفل. وفي النهاية يقرر العودة من حيث أتى، لأنه لا حق له في البقاء في هذا المكان الذي تجلس فيه النساء حتى لا يتسبب هو

وزوجاته في وساخته، والمفروض أن لا يتعدى هو وهن حوش البقرة وصفتها، وفي أي لحظة سوف يأتي من يطرد الجميع بعسيب أو عذق. ومع هذا الإدراك، وهذه الخيبة الواضحة، فإنه لا يتوب، ففي كل مرة يسمع صرة الباب يبدأ الركض، ونحن كلما نمر بباب الصفة نفتحه ليصر، ثم نغلقه ليخيب أمل الديك وفرقته. لا تعب علينا، فنحن لا نأتي قاصدين هذا العمل، وإنما نمرّ عَرَضاً من هناك، ونختفي لمدة دقائق خلف «الشرف» نراه وفرقته، ولا يرونا إلا بعد أن «نشبع» من الضحك. فنفاجئه بالعسيب، فصار بمجرد أن يرى الباب مقفلاً يسرع بالهرب، لأنه يعرف أنه يتلو اكتشافه قفل الباب عسيب سوف يهوي عليه. وهو لا يخلو من ذكاء؛ فقد كانت لعبة بعض الأطفال

إذا مر بالدجاج أن يؤذيها: يركلها، أو يرميها بحجر، أو يضربها بعسيب أو عصا، ولهذا فمجرد أن يرى الديك هؤلاء يهرب.

الدجاج والقطط:

قلت إن الديك الطيب قلّ أن يذبح، وغالباً يموت حتف أنفه إلا إذا ابتلاه الله بقط يطبق فكه على رقبته. والقطط في نجد متوحشة[1]، وتكاد لا تُرى في النهار، وطلبها المعيشة هو في الليل، وتُرى على أعلى الجدران، وهي تخيف في الليل، فتكون أحياناً مختبئة، فإذا اقترب الإنسان من المكان الذي هي فيه مرقت كالسهم مما يصيبه بالفزع. وأسوؤها عند الناس الأسود منها، لأن

(١) علمت ممن هو أصغر سناً مني أن هناك في بعض البيوت قططاً مستأنسة.

هناك اعتقادًا أن كل قط أسود جنّي، ولهذا القول ما يبرره، فإذا أقبل الإنسان وبيده سراج، وسطع نوره في عيني القط الأسود فإنه يوحي بأن ما أمامه جنّي. وعين القط في مثل هذه الحالة مخيفة فعلاً للصغير وللمرأة.

أما القطط في مكة فأليفة، وتقترب من الناس، ويداعبونها، وتسكن معهم في البيوت، وغذاؤها منتظم، وهي سلوة الأطفال، ويكاد يكون لكل واحد منهم قطيطة، تكبر معه، لها اسم، ولها مكان تأوي إليه، وتلد فيه. وأذكر أن شخصاً اسمه «الهميلي» من عنيزة حج في إحدى السنوات، وأحضر معه لعنيزة قطة أليفة من مكة، وكان يسكن في بيت في ركن من أركان «الحيالة» مبيعة العلف، وفيها دكاكينه، ودكاكين القصابين، فكانت هذه القطة تخرج من بيت «الهميلي»، وتخترق

الحيالة، ويقف الناس ليداعبوها، فيأنسوا بها، وتأنس بهم، فكان منظرها مدهشاً ومعجباً، ولم يكن للناس، في أول مجيئها، حديث إلا عنها.

والقطة للصغير في مكة مصدر لعب وتسلية خاصة إذا كانت القطة صغيرة، فهي تحب اللعب، حتى في الأوقات التي لا يكون أصحابها مستعدين لملاعبتها، فهم عندما ينامون داخل «الكلة» (الناموسية)، وتكون القطة خارجها، ويتحرك النائم، فتأتي يده على الناموسية من الداخل تنقض عليها تظن أن صاحبها يداعبها، وتعضه عض مزاح، وهذا قد يوقظه من نومه، وهو ما لا يريده، ولكنه يستحق هذا لأنه هو الذي علّمها هذا، وعودها عليه، عندما كان متفرغاً للمزاح واللعب، ونهار القطة ليله، وليلها نهاره.

القط (العُرِّي):

القط في نجد يسمى «البِسّ» وفي مكة «العُرِّي».
والقط في نجد شرس، وشراسته تتبين عندما يعمد أحياناً إلى صغار القطط ليلاً فيذبحها، رغم يقظة أمهن، ولكنه ينتهز ذهابها فيجهز عليها، ونجدها في الصباح مبتورة وريد الحلق. ولا أدري هل هذا تمهيد لأكلها، أو أنه تهيئة، للأم حتى تطلب السفاد، مثل الأسد واللبوة.

وللقط صوت مميز عن صوت القطة، وصوته في فصل الشتاء، في «الشبط» أجش عالٍ، وله أحياناً صوت مختلف يكون منخفضاً هو أقرب إلى الهرير وإلى الهمس، فإذا فعل هذا فهو يستعد لختل صيد، ولهذا يقال:

إذا سبح القيطون همّ بسرقة

فلا تأمن القيطون حين يسبح

وواضح هنا أن كلمة «قيطون» مأخوذة من «قط». وكما قلنا في نجد يسمى القط بِسَّاً بفتح الباء.

غداء على لحم قط:

هناك قصة تدور حوادثها في الأساس على كلمة «بَسّ». عندما كان الملك عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ في الرغامة، محاصراً جدة، في عام ١٣٤٤هـ، أرسل خطابات لرؤساء القبائل والقرى، يدعوهم إلى البيعة، والدخول فيما دخل فيه الناس، بعض هذه الخطابات وُجّه بالاسم، وبعضها ترك غفلاً من الاسم، وقال لحاملي الخطابات إذا تعرفتم على من لم نتنبَّه له، واستحق

أن يُخَاطب، فاكتبوا اسمه على أحد هذه الخطابات.

فذهب الرسل إلى وجهتهم في إحدى المناطق، ووصلوا إلى قرية لم يرد اسم رئيسها في الخطابات التي معهم، ولم يعرفوا من هو الرئيس، فرأوا بيتاً عليه بعض علامات التميز، فنزلوا ضيوفاً على صاحبه وزيادة في الإكرام بعد أن رحب بهم، سألهم عما يفضلونه غداءً لهم، ولأنهم كانوا في شوق إلى «الأرز» قالوا له: «رُزّ وبَسّ». وبعد وقت دعاهم إلى الأكل، فتحلقوا حول إناء فيه أرز وبعض قطع لحم. وكانوا على وشك أن يمدوا أيديهم ليأكلوا، وإذا بقط يمرق من أمامهم كالسهم، فالتفت إليهم المضيف وقال لهم:

العذر من الله ثم منكم، والله لقد حاولت الإمساك به، وطاردته، ولم أفلح في مسكه مثلما أفلحت في مسك

أخيه هذا.

وأشار إلى قطع اللحم التي على الأرز.

فكف الرسل أيديهم عن الأكل، واستفسروا ليتأكدوا إذا كان ما فهموه من أن هذا اللحم الذي أمامهم لحم قط أم لا، فلما تأكد لهم هذا، ابتعدوا عن الإناء، وتبين أن اللّبس جاء من أن أهل تلك المنطقة يسمون البِسْ بَسّاً، وكلمة البَس، بفتح الباء أصح في اللغة الفصحى من البِسّ بالكسر.

فلما أدرك الرجل ما حدث من سوء الفهم هذا قام وذبح لهم عجلاً كما قَدَّر هو، لا كما اشتهوا هم. والذي قصَّ هذه القصة هو الأخ سعيد بن محمد القحطاني.

جانٍ يلقى جزاءه:

لا أدل عن مدى اهتمام الناس بالدجاج، وإدراكهم لخطر القطط عليها، من أن يقول فيها الشاعر شعراً يبين العلاقة بين هذين النوعين.

وقد نظم الأستاذ المبدع عبدالمحسن الناصر الصالح قصيدة ممتعة، تُصوّر بإتقان ما حدث لديكه من جراء اعتداء القط عليه وأكله، والثأر الذي تبع ذلك. وفي هذه القصيدة صور متتابعة هي بمثابة تمثيلية متكاملة، وُزِّعت أدوارها بدقة، وامتلأت بالحركة التي تليق بالأحداث التي تمثلها القصيدة، وسأقتطف منها بعض أبياتها، ومن أرادها كاملة فهي في ديوانه في الصفحة (٦٤). وكان لي شرف كتابة مقدمة الديوان. والقصيدة مثل بقية قصائد الديوان باللهجة العامية

فيها صور حياة الدجاج، وصلتها بزوجها، وفيها وصف لفائدة الديك، ومقامه في مجتمعه، ووصف لجماله البديع، وغيرة الجيران من حيازة صاحبه له، ثم تأتي الجائحة، وانقضاض القط عليه، إلى آخر ما جاء فيها من تفصيل بديع.

لقد انتشرت هذه القصيدة بين أبناء عنيزة لجودتها، ولمحبة الناس لقائلها، فهو أستاذهم أو أستاذ أبنائهم، أحبوه لذلك، ولما يتصف به مثل أخيه صالح، من خُلُق فاضل، وصفات حميدة.

ومطلع القصيدة

لـي ديـك زيـن توقيتـه

يوعّـي النايـم تصـويته

بدأ الشاعر بوصف ديكه وأهميته للأذان، وعنايته

به، وإطعامه مع أبنائه، والتأكد من أنه نام بمكان آمن، إلا أن جيرانه حسدوه، لتميزه، وجودته، فخططوا أن يقبضوا عليه، فأرسلوا عليه قطاً قضى عليه، وهذه أبيات جميلة تمثل بعض ما حدث:

بينّ راسه يبي القبلة
مع فرجة بيته من خِبله
وإلى البَزُّون يراقب له
والحِبله بيد الحبال
يوم اطلع راسه وحنوكه
وإلى ان الكيسه مفكوكه
على إثم الفرجة متكوكه
باثم البزون الحبّال

ويستمر في وصف الافتراس إلى أن يقول:

بالمنـــاره أول صوتـــه

والتالي في بطن الحوته

تسـمع في حلقه زغروتـه

يلـــوي بالغــبه ويلالـــي

حـدا زوجـاته حسَّـت بـه

لكـن موتـه ما دريـت بـه

قالت لاختَه رجلك وش به

يرقـص كـنه فيـه هبـال

قالـت يلعب لعب العرضـه

أو ينفض بشته فيه أرضه

ولا الريس يقضي فرضـه

لا والله طـاح الرجــال

ويصف اكتشاف زوجاته موته، وتيقنهن من ذلك،

ووصول الخبر إليه، وهو جالس في قهوة بيته، ويصف موقف أبنائه، وتعهده بتعويضهم ببديل عن الديك المغادر، إلى أن يقول:

قــال ســليّم يا بـابـاه

شِـبّ البندق في علبـاه

دام الســرقة في مخبـاه

تشـهد عن لـوم العـذالِ

ثم يتحدث عن نجاحه في قتل القط، وأخذه الثأر منه، وشفاء غليله منه!.

الصور المتتالية تبين مدى أهمية الدجاج لأهل البيت صغاراً وكباراً، وتؤكد صحة اختيارنا تقديم الدجاج على البقر والنخل والقمح!.

صورة للدجاج والبقر:

قبل أن نقترب من ختام الحديث عن الدجاج، نربطها بالأبقار؛ والأبقار محببة إلينا مثل الدجاج، وما سنأتي به صورة كسبها الصغار من كبار أهلهم، وهي مثل كثير من القصص التي ترويها الأم لإبنها، فيها إلباس الحيوان رداء الإنسان، وهو أمر يحبه الصغير، ويحرص على سماعه، ولا يملّ من إعادته مرات ومرات، بل إن القاصّ إن لم يبدأ بالإعادة فإن الطفل يطلبها، ويلح في ذلك.

وفي اختيار هذا الأسلوب هدف تربوي مجرب، فهو يسهل قبول الصغير للمعلومات التي ترد ضمناً، وأحياناً يأتي هذا في صورة أبيات يسهل حفظها وترديدها. وأذكر في هذا الاتجاه بيتين جميلين يصوران

عِجلاً ناطقاً رأى ديكاً يؤذِّن فأول أذانه تأويلاً لم يخطر للديك على بال:

أذّن الديـــك وقـوقـــا

يحســـب إني دجاجــة

ما درى أنــي عجنجـــل

لابــس لــي حــداجــه

وهناك من يحفظ البيت الثاني هكذا:

مــا درى إنــي رقيطـــاً

بنت أميــر البســاسـه

وعند مقارنة الروايتين نجد أن قوة الصورة الأولى في اتفاق القافية، وقوة الثانية في المعنى.

والحداجة هي «الشطفة» المتينة التي تقوم مقام

العقال في اللبس، وهي تشبه الحداجة التي توضع على ظهر البعير، لتحمي ظهره من «الدبر» الذي يحدثه احتكاك الشداد بجلد الظهر، فهذه الحداجة المصنوعة من صوف خشن تحميه، بإذن الله، من ذلك.

ونكتفي بهذا عن الديك والدجاج.

حديث عن البقرة[١]:

البقرة حيوان أليف له أهمية كبيرة، وهي عنصر مهم في بيوتنا، ولا يتصور في ضوء مستوانا المعيشي والاجتماعي آنذاك أن يخلو أي بيت من واحدة على الأقل، فالبقرة والبئر أمران يحددان موقع الأسرة من المجتمع، ولهذا خصص لها مكان مناسب، يتكون من

(١) لم يكن عندنا أغناماً، وكان أحد جيراننا عنده أغنام، ولم نقتن أغناماً إلا في مكة، لعدم مناسبة البيوت فيها للأبقار، وكانت الماعز هي البديل.

«مراح» (حوش) وصفّه، كلاهما بالسعة التي تريحها، الصفّة تقيها الشمس في الصيف والحوش تنام فيه بالليل، لبرودته، والصفّة تلجأ إليها في الشتاء ليلاً من قارس البرد، والحوش تخرج إليه في النهار، لتتمتع بدفء الشمس، والهواء الطلق. وفي الصفّة معلف واسع يكفي أن تقف وتأكل منه ثلاث بقرات، ومثله في الحوش.

والبقرة التي ماتزال ذكراها ماثلة أمامي هي «الصبحاء»؛ وسميت صبحاء لبياض منير في جبهتها، وكانت بقرة هادئة، لا «تعف» (تنطح)، وستتبين طبيعتها مما سوف أذكره عما نفعله بها نحن الصغار، ولم نكن نخاف منها، أو نهابها، ولعل ذلك لكبر سنها، والبقرة إذا لم تكن صغيرة فإن أظلافها تطول،

فإذا طالت جاء من يقصّها، وقد قُصَّت أظلاف الصبحاء أكثر من مرة. وأذكر أن جسم الصبحاء لم يكن مكتنزاً، والعظام التي في مؤخر ظهرها، وأظن اسمها «القحاقيح» كانت بارزة، وهي لا تستريح؛ فمن حمل مُنْهك إلى حلب مُمِضّ.

وفي سنة من السنوات اشترى أهلي بقرة شهباء وسميت فيما بعد «الشهباء»، وكانت عجْلَةً صغيرة السن، مكتنزة الجسم، نشطةً لعوباً، لا تكاد تشبع من الرقص، وهذا يعجبنا منها، فنقف خلف جدار الحوش نرقبها، ولعل وقوفنا يشعرها بأن هناك جمهوراً يقدّر رقصها هذا، فتزيد منه، وتنوع فيه، وليس بيننا من يجرؤ على الدخول عندها، خوفاً من أن تسحقه بأقدامها وجسمها، وهي في سكرة هذا الطرب، أو تنطحه بقرونها

ظانة أن هذا جزء من المداعبة والمزاح! ثم حملت «الشهباء» وولدت، وحلبت، فهدأت، واقترب طبعها تدريجاً من «الصبحاء»، وألفتنا، وألفناها، وتبين أن ما ينضج عقل البقرة، ويثبتها هو الحمل والوضع.

وأذكر أن أهلي اشتروا بقرة «دبساء»، حمراء، قد وضعت، وفيها حليب، ولكنها «ترضع روحها»، أي ترضع نفسها، وهذا عيب كبير، ولا أدري هل نبَّه البائع أهلي إلى هذه الطبيعة المنتقدة، أو أن قيمتها كانت متدنية مما أغرى بشرائها، مع نيّة وضع «نير» على رقبتها يجعل فمها عاجزاً عن الوصول إلى ثديها. ولكن الوضع لم يبد طبعياً، فتخلصوا منها بالبيع بعد وقت قصير، ونحن الصغار لم نعط المدة الكافية لكي نطور علاقتنا معها.

البقرة حيوان مكلف لصاحبها، وليست التكلفة في ثمن البقرة ولكن في إعاشتها، فهي ليست مثل الدجاج تأكل من سقط الموائد، ويكفيها القليل. البقرة لها علف معين، يُعطَى في أوقات معينة، ولسان حالها يقول: «إعطني أعطك» إذا كان صاحبها يريد حليباً كثيراً فلابد أن يعلفها كثيراً، ولهذا أُعد في مسكنها «المعلف»، وحُرص على وضع العلف في المعلف، الذي يرتفع في مستواه إلى رقبة البقر، لأجل ضمان نظافته، وهو أمر مهم، لا يهمل بأي حال من الأحوال.

وبعض أنواع علف الأبقار ثابت طوال العام مثل «القت» (البرسيم) والتبن، و «المدوده» (النفيعة)، وبعضه موسمي، يأتي وقت الربيع مثل الربلة، وما يشابهها من

حشائش البر. و «القت» هو العلف المحبب لجميع الحيوانات تقريباً، إذا وجد فإنها لا تلتفت إلى غيره إلا إحماضاً. ولكن القت ثمين، لا يؤتى منه إلا بمقدار، خاصة إذا شحت الأعلاف الأخرى، وإلا فالدقسية والتبن أقرب متناولاً في الثمن.

وكان جلب العلف للبقرة في بيتنا يحتاج إلى ترتيب، وأذكر أن أبناء عمتي حصة، أبناءها من بطنها، أو رضاعا، وهم من أسرة العوهلي كانوا هم الذين يحضرونه من «الحيالة» «مسيّان» قبل أذان المغرب. وعمي طالب علم، وسنّه كذلك لا يسمح له بحمل العلف. والعلف عادة لا يجلب في المبيعة إلا بعد صلاة العصر. وهو عادة أرخص من الموجود في الدكاكين طوال النهار، مع طراوة وجدة.

ومن الأعلاف الجيدة التي يحبها الحيوان «الصِّبَط» و «النِّصي» والجرجير والذرة، وهو علف مرحب به من الحيوان، ولكن له مواسم يتوافر فيها، وليس طوال العام.

المدودة (النفيعة) من أفضل ما تأكله البقرة، ويحرص على تقديمها لها بعد الولادة لتساعد على إدرار الحليب وكثرته. وعنصرها الأساس نوى التمر، يجمع ويوضع في قدر مدة طويلة لتلين النواة لتأكلها البقرة براحة، ويضمن أن يهضم ما فيها من عناصر مفيدة.

ومن الطرائف التي تروى أن أحد الفقراء جاء جائعاً، فوجد المدودة جاهزة، فأكلها، ولما لفت نظره إلى أن هذه مدودة البقرة، قال: هذا حق لأني لاحظت أن فيها «حثيربّات» أي ليست ناعمة وفيها ما هو

نوعاً ما خشن!.

ويقوم بجمع «العبس» (نوى التمر) الصغار، أو المحتاجون الداخلون مؤقتاً إلى عنيزة من القرى أو البادية، والجميع يجمعونها من الأسواق والطرقات، وما يجدونه في المساجد، في ساحاتها الخلفية، مما تركه بعض أفراد من البادية الذين كانوا يشترون التمر في الضحى، ويأكلونه ويتركون النوى، فيجده الأطفال الباحثون عنه هدية ثمينة تقدم لهم على صحن من ذهب!. فإذا جمعوا منه حصيلة كافية ذهبوا به إلى أم «السوالَى» في سوق «القاع» المخصص للنساء، فيبادلونه «بجحّ» (حبحب) أو «جراوة» (خربز)[1].

وأم «السوالى» تجمع النوى، وتبيعه لمن يحتاجه مدودة،

(١) فهمت ممن هو أصغر مني سنّاً، وأكثر مداومة على زيارة عنيزة، أن الجح والجراوة أصبحت في زمنه لا تباع إلا بالتمر، أما العبس فيششترى به الهبّود..

ويكون البيع في هذه المرحلة نقداً.

وساحات المسجد أحياناً تمد الصغار بثروة ثانية وهي حب الخربز والحبحب، التي يتركه من أكلها هناك، وساحة المساجد هي بيت الأجنبي الطارئ، الآتي ليوم أو بعض يوم، ولا يعرف أحداً يضيفه، ونعرف بعضهم ممن أخذ هذا الحب وغسله بسرعة ولم ينتظر إلى أن يجف، ووضعه في جيبه رطباً، فترى أثر الماء في مخباته «جيبه»، وقد يشاركه جاره في المدرسة في «تنقيمه» «فصفصته»، أي إخراج اللب من القشر.

ويأتي حرص القادرين على اقتناء البقرة من أنها مصدر ثَرٌّ للحليب، الذي يحتاجونه حاراً مخلوطاً معه بعض الشاي في الدعوات التي تتم بعد صلاة العشاء أو في الصباح في الشتاء وهو الغالب «يروبونه» إلى

لبن، بعد أن توضع «الضِّروة» (الخميرة)، ثم يوضع في «السقاء» (الصميل)، وهو قربة صغيرة رقيقة، يعلق في «قنارة» (حامل) تسمح للمرأة أن تخض السقاء وقتاً غير قصير، وعملها هذا مجهد، يهد الأكتاف، ثم يصب في إناء، وتفصل منه الزبدة.

واللبن والزبدة والتمر وخبز التَّنُّور، والتاوة(١) هي الغداء في وقت الضحى، أو ما يسميه بعضهم «الهجور»، ولعل الكلمة آتية من الهاجرة لأن هذا وقتها، قبل وقت القيلولة. وما يبقى من اللبن بعد الرجال «يدغج» (يملأ) ماءً، ويُعطى للأطفال، وإضافة الماء تجعل اللبن كافياً للجيش المنتظر!! واللبن بهذه الصفة يصبح إشاعة لبن، أو ماءً فيه لبن، وليس لبناً فيه ماء!

(١) خبز التاوة عجينة تشبه عجينة «اللقيمات» تضغط فتبسط ثُم تُلقى في سمن أو وَدَك يغلي، فتنتفخ، وتكون جوفاء، وهي لذيذة جداً.

حتى الخبز الذي يبقى لا يبقى منه إلا أطرافه التي لم تنضج، وتبقى متينة عند أكلها تذكّر بالعجين، ولكنها عندنا، نحن الصغار، أكثر من مجزية، ومع الشباب والجوع يكفينا اسمها، وهي مكسب بالنسبة للفقراء الذين لا يطمعون في مثل هذا.

الرجل يلد ثوراً:

بعد هذا الوصف الذي قد يجد شباب اليوم أنه ممل، نأتي بطرفة تخفف عنهم حدة الملل، وهي كالتالي:

لأن البقرة هي الثروة الغذائية لأهل البيت، ولمقامها عندهم، وخوفهم عليها من العين، يحاولون أن يتجنبوا الاقتراب من أعين الحاسدين أو سمعهم، فهم يحرصون أن لا يخرجوها وقت الحاجة في النهار

ما أمكن ذلك، خاصة إذا كانت نَضرة. وإذا (حدهم) الظرف، مثل وقت «التشبية» (التلقيح) حاولوا أن يكون بالليل، أو وقت «هجدة» الناس وقت القيلولة، أو عند شروق الشمس. وإذا حملت زادوا في حجبها، وإذا ولدت زادوا في هذا أكثر وأكثر. وبعض الناس يخفي أن عنده بقرة، وإن كانت البقرة لا تخفى، فجلب العلف يفضحهم، وإذا «أعطت» (طلبت الثور) فإن ثغاءها يكاد يسمع البلدة بكاملها، فيضطرون أن يهدئوها بأخذها للثور في أسرع وقت.

ويقال إن رجلاً ولدت عنده بقرة، وكان من عادة أخيه أن يجلس بعد الصلاة على أحد «حبوس - جمع حبس» (كراسي طين) عند المسجد الذي اعتاد أن يصلي فيه. وأحب أن يخبره بولادة البقرة فوكل إخبار

أخيه إلى ابن له ساذج، وطلب منه أن يكون إخباره «غطواً» (إلغازاً)، ولا يخبره صراحة بالأمر حتى لا يعرف الآخرون، فيحسدوا البقرة و «يرتفع» حليبها، أو تصاب بأذى.

ذهب الابن إلى حيث يجلس عمه، وأخذ يدير الفكر في الجملة التي سوف يلغز بها عن ولادة البقرة، فلما وصل حيث يقعد عمه كانت الجملة قد تبلورت إلى ما يعتقد أنها به ستؤدي الغرض، وقد نالت استحسانه، فقرر أن يلقيها على عمه على مسمع من القوم، ولن يعرفوا بحال من الأحوال مدلولها، قال:

يا عم، يسلم عليك الوالد، ويقول: ترى الرّجال جاب ثور. وعرف الجميع أن «الرجّال» هي البقرة، واكتشفوا غباء الولد.

وكلمة الرجّال تستعمل في الإلغاز عن المرأة والرجل، على أن يكون هناك قرينة تدل على المقصود. لكن ولادة الرجَّال ثوراً تعدت حدود الإلغاز بكل المعايير، وعلى كلٍّ، ثوب العارية لا يكسي، والتكلف يضر أكثر مما ينفع، ولهذا فاللغز لم يصب سهمه المرمى، ونرجو ألا تكون البقرة، ولا عجلها، ولا حليبها ولا أهلها قد أصيبوا بأذى عين من سمعوا اللغز وفهموه.

الركوب على الصبحاء:

أشرت سابقاً إلى هدوء «الصبحاء»، ورزانتها، وأنها لا تنطح، وهذا أغرانا، خاصة وقت القيلولة وأهلنا نيام، أن نركب على ظهرها، واحداً بعد آخر، أو اثنين معاً، متصورين، مع صغر أجسامنا، أننا

عندما اعتلينا عن الأرض أصبحنا على ظهر حصان أو بعير، مادام ما تحتنا هو حيوان، وإذا تواضعنا فإننا نتصور أننا على ظهر حمار. وفي هذا الجو الذي يوحيي بقول الشاعر: «خلا لك الجو فبيضي واصفري» ننسى أنفسنا، رغم أن الاتفاق قبل البدء أن لا نرفع أصواتنا ثم ننسى مصادر خوفنا، و «ننسجم» مع اللعبة، ولا يبقى في ذهننا إلا لذة الركوب، والدوران على ظهر البقرة في الحوش، أو في الصفة على ضيقها، وأول ما ننساه هو أهم شيء لنجاح عملنا، وهو الهدوء، حتى لا نوقظ النائم، ونلفت نظر اليقظ الغافل.

يبدأ التنافس على الركوب، فهذا لم يركب أولاً، ويخشى أن لا يركب أبداً، وهذا ركب ولكنه يعتقد أنه لم يركب وقتاً كافياً، وكلمة احتجاج من هذا، وردّ

من ذاك، فتعلو الأصوات تدريجاً حتى يصبح الكلام صراخاً، لا يغلبه إلا الاندفاع لمد اليد للصفع، أو الرجل للركل. ولا يوقف «حمو» الوطيس، إلا ضربة تنزل فجأة على ظهر الراكب، وصفعة على وجه المنتظر، من يد أحد الكبار، الذي جلبته الضوضاء، فجاء «يهقس» (يمشي ختلاً)، بعد أن تأكد من الجناية على البقرة المسكينة. ويلي هذا افرنقاع الصبية كأنهم فئران هاجمها قط، وكل واحد منهم يبحث عن مخبأ، أملاً في أن يكون العقاب خفيفاً بعد أن يمر عليه وقت، وتبرد شدة حرارة الغضب. وما أكثر أماكن الاختباء! فهي معروفة من كثرة ما التجئ إليها، وكثرة الالتجاء هذه بسبب كثرة الخطأ، والخروج عن الجادة، وعن الخط المرسوم من الوالدين.

واختيار المخبأ يتوقف أحياناً على جنس الكبير الذي اكتشف الجرم، وهرب الصبيان منه، فإن كان رجلاً، فلابد أن يكون المخبأ مُعَمَّى تعمية كاملة، كأن يكون تحت درجة ظلماء، لا يُعرف ما بداخلها إلا بسراج يُنار، أو صفة ظلماء مثل الدرجة في عتمتها. أما إذا كان مكتشف الخطأ امرأة، فالأمر أسهل، وأقرب ملجأ «باب السوق» أي الباب الخارجي للبيت، ويبقى الإبن على بُعد مترين أو ثلاثة، وكأنه يغيظ ذئباً في قفص، فأم الصبي أو عمته أو خالته لا تستطيع أن تترك البيت إلا إذا لبست عباءتها، فإذا وصل الأمر إلى هذا الحد فخير منقذ القدمان يطلقهما الصبي للريح وهو مطمئن أن المرأة لن تتابع الأمر إلى هذا الحد من البعد أنها ستكتفي بإيقاف مهزلة ركوب البقرة.

وأذكر أن من بين الملاجئ المنقذة من عقاب أي خطأ يرتكب، جدار عال لا تفكر المرأة أن تصعد عليه، والرمح لا يصله، فيبقى الصبي (القرد) فوقه وأمه أو عمته أو خالته تحته «تَرابَط» (تغلي من الحنق)، وتشتمه شتائم متواصلة، وتدعو عليه دعوات متتالية، وهو يبتسم يغيظها، مدركاً قوة مركزه، وقد يُخرج لسانه زيادة في الإغاظة إن كانت المطاردة أخته الكبرى، وينسى ما قد يأتيه من عقاب عندما يُنقل الخبر إلى والده أو عمه.

أكتب هذا المقطع، وأنا في جدة، في شهر ربيع الثاني من عام ١٤٢٥هـ، عندما كنت «أتمشى» في الحوش، قائماً برياضتي اليومية، بعد المغرب، سمعت نباح كلب جارنا، وكان نباحاً متوالياً لم نعتد عليه

منه، ويدل على أنه مغتاظ وحنق. وعندما اقتربت في مشيي من الحائط الذي يفصل بيتينا، رأيت قطة رابضة مسترخية على الجدار، تنظر إلى الكلب بهدوء، وكأن الأمر لا يعنيها، مع أنها هي السبب في كل هذا النباح الصاخب. وبقدر ما كان هو مهتماً، وغاضباً، وصوته يملأ الدنيا، كانت هي في منتهى الاطمئنان والاسترخاء والسكينة، وكأنها بنظراتها إليه غير آبهة به، بل تقصد إغاظته. وهذا فعلاً أغاظه، فجعل نباحه يأتي متتالياً عالياً كأنه طلقات رصاص «ماترليوز»، ولو أمسك بها لقطعها إرباً إرباً.

عندما اقتربت من المكان الذي كانت تجلس عليه القطة نظرت إليَّ، وتبعتني بعينيها إلى أن اختفيت في منحنى ركن البيت. بعد قليل، وقبل أن أكمل الدورة

لاحظتُ أن صوت الكلب بدأ يهدأ، ثم توقف تماماً ولم يبق منه إلا همهمة توحي بأنها صوت انتصار. ولما وصلت إلى المكان الذي كانت تجلس عليه القطة وجدتها قد اختفت، فأوّلت الأمر على أنها أدركت أنها صارت بين عدو ونصف عدو، أما العدو الكامل فهو الكلب الذي أظهر عداوته بنباحه الوحشي، وأمنيته أن يصعد إليها، أما نصف العدو ـ كما تخيّلت ـ فهو أنا، وظنت أنها قد تكون وضعت نفسها في «كلاّبة»، فأخذت جانب الحذر، واكتفت بما مر، وتركت مكانها، واختفت وأراحت واستراحت. وقد كنت فعلاً أنوي طردها على الأقل لإسكات الكلب عن النباح، بعد أن تأكدت أن سببه هذه القطة الخبيثة!.

يا تُرى، عندما كانت على الجدار، تنظر إلى الكلب

الساخط، وهي كأنها من البرودة داخل لوح ثلج، هل كانت تتلذذ بهذا الموقف مثلما كان الصبي يفعل مع أخته الكبرى، يتلذذ بنجاته من العقاب، وبإغاظة أخته؟.

هذه الأفكار المترفة أمكن أن يجترها الذهن، لأن صاحبه كان يريد شيئاً يشغله مادام يؤدي واجباً مملاً في مشي مفروض عليه يومياً بحكم السن، وبحكم عملية الركبتين، والحرص على عدم زيادة الوزن لمتطلبات الصحة التي يجب أن تُراعى في كل جزء من الجسم، وكل غدّة صغرت أو كبرت.

البقرة والرعي:

مادمنا دخلنا حياة البقر فلن نخرج منها «حتى تقول الهامة اسقوني»! ولا غرو فالبقرة كانت عنصراً

أساساً في حياتنا في عنيزة، وفي حياة جيراننا، وحياة الراعي الذي يأتي كل صباح، في وقت الربيع، ليأخذها مع أخريات، إلى المراعي خارج البلدة، حيث الرياض المعشبة، ويعيدها إلى البلدة قبل أذان المغرب، ويقف لسقياها من أول «حابوط» بستان يمر به. «والحابوط» بركة صغيرة يغذيها «ساقي» يخرج جارياً من تحت جدار المزرعة، ويعود ما زاد من «الحابوط» مرة أخرى إلى البستان من ساقي آخر.

وتعد هذه الحوابيط «سبيلاً»، وصدقة جارية، ووقفاً تستفيد منه الحيوانات بالشرب منه عند المرور به، وتستفيد منه النساء اللاتي ليس في بيوتهن آبار، يأتين على «جاله» (حافته) ومعهن الملابس التي تحتاج إلى غسل بعد «التربيص» (النقع) أي بعد أن

تبلّ وتترك بعض الوقت «لتخمر»، ثم يوضع عليها «الإشنان» الذي يقوم بتواضع مقام الصابون عند الأغنياء[1].

تمر الأبقار بهذا الحابوط، وتشرب منه ثم تترك بعد ذلك لتصل إلى بيت أصحابها، وبعضها يوصلها الراعي، وبعضها يأتي أولاد أصحابها لاستقبالها، ويسمى هذا «تهضيلاً». ولابد للأولاد من «الشيطنة» (العفرتة) عند كل فرصة تتاح، والفرصة المتاحة مع البقر هو المسابقة بينها، فأيها يصل إلى البيت قبل الآخر، ولحث البقرة على الجري تضرب أو «يُعقص» (يلوى) ذنبها، والذنب فقرات، وليها يؤلمها أشد الألم، فتركض، وبقدر ما تتألم تسرع، وبقدر ما تسرع يفرح الأولاد،

(١) وتغسل به بعض النساء الأواني، وبالأجرة أحياناً للأسرة الغنية، وتستعمل هذه البرك أحياناً للوضوء، ويسبح بها الصغار.

ويبتهجون، وليست البقرة هي الوحيدة التي تتألم من هذا العمل بل المارة كذلك، خاصة عند المنحنيات، (أركان الشوارع)، فهنا الرائح لا يرى القادم، فيحدث اصطدام مروع، يحلف الصبي على أثره، أيماناً مغلّظة ومتتالية، أن البقرة انطلقت، وخرجت عن طوعه، وحاول أن «يقهرها» (يحد من ركضها) إلا أنه لم يفلح، وليس أمام الكبار إلا أن يصدقوه[1]، فالأمر قد يكون صحيحاً، ولكنهم في داخل أنفسهم في شك مما يقول، ويرجحون أنه مذنب في حقهم وحق البقرة.

تهضيل الأبقار:

كما قلت: «تهضيل» الأبقار «مسيان» هو تلقيها

(١) ومن جملة ما يقوم به الصغار أنهم يمسكون بذنب البقرة، وينبطحون خلفها لتقوم بسحبهم، وهذا يحدث بالرغم من أن في هذا تجريحاً للبطن وتوسيخاً للثوب.

عند عودتها من الرعي في البر، وهذا يفيدها في رعي أنواع مختلفة من الأعشاب تختارها كما يحلو لها، بالإضافة إلى الشمس الصافية، والهواء العليل، ويفيد هذا في توفير ثمن الأعلاف، وأجرة الراعي ليست كثيرة إذا قورنت بما يصرف على العلف.

بقرتنا مثل أبقار الناس تُخرج للرعي في البر وقت الربيع، ويأتي «مطلق»، وهذا اسم الراعي، كل صباح، ويأخذها، ويجمع من البيوت الأبقار، ويذهب بها مجتمعة إلى أقرب روضة في خارج البلد. وكنت، بعد أن جاوزت سن العاشرة، أذهب لاستقبال بقرتنا الصبحاء، ولا أبرئ نفسي من فعل ما يفعله الصبيان الآخرون، ولكن بحذر خاصة عندما أقترب من الزوايا، وأحرص أن أردد وبصوت عال: «بالك»،

وهي كلمة تقال لتحذير السائر على قدميه من قبل راكب أو سائق لجمل أو حمار أو بقرة، وهي كلمة تنبيه مأخوذة اختصاراً من «ألق بالك». وكنت أسرع بالبقرة لأصل في وقت سريع لآخذ جدي من البيت إلى المسجد بعد أن كفّ بصره حين أصبح حينذاك في الخامسة والتسعين، عليه رحمة الله.

وإذا كنت قد جنيت على البقرة في يوم من الأيام، فقد أخذ الله ـ سبحانه وتعالى ـ حقها مني، ولولا لطفه لكان جزائي الموت تحت أظلاف البقر، وها هي القصة:

في يوم من الأيام، ذهبت كالمعتاد «لأهضل» «الصبحاء» وعند الحابوط تجمع عدد من الأبقار تشرب منه، وكان هناك تزاحم، وقد منع الراعي انطلاقها بعد

الشرب من حابوط الشعيبي فرادى، وكان يريد أن تنطلق كلها دفعة واحدة، ويريد أن يتأكد أنها شربت، ملء بطنها، وقد أخذ بعض الأولاد بقرته وانطلق بها من طريق آخر.

كل واحد من الأولاد معه عصا قد اقتطعها من شجرة أثل كما هي العادة. وعندما نقطع العصا نبري طرفها بحيث يكون حاداً كطرف الإبرة «لننحز» (نشك» به البقرة لتسرع. طلب مني «الراعي» أن «أحجرها» (أحجزها) عند الحابوط، حتى لا تفلت وحدها، وذهب هو يجمع الأخريات. ومع الاستعجال بعد أن وكلت لي هذه المهمة ذات المسؤولية الكبرى! أخذت ألوّح بالعصا، يميناً ويساراً، والطريق الذي أنا فيه ضيق نوعاً ما، ولم أتنبه إلى أن العصا كانت مقلوبة، وأن

الرأس الحاد كان تجاه راحة يدي. وفي إحدى مرات التلويح ضرب طرف العصا الجدار القريب مني، وهو جدار قصير نوعاً ما، فانغرس الطرف الحاد في راحة يدي، «فمكعته» (انتزعته) بسرعة وبقوة، «فثعور» (انبثق) الدم شخباً من يدي، وفي لمحة شعرت أنه سوف يُغمى عليّ، فتداركت نفسي وقفزت على الحائط القصير، وانبطحت عليه، ويبدو أن الإغماءة لم تأخذ إلا ثوان، ولكني عندما صحوت وجدت الأبقار قد تفرقت، ومن جملتها الصبحاء.

والحمد لله أني تداركت نفسي، وقفزت على الجدار، ولو وقعت على الأرض، وداستني هذه الأبقار المنطلقة بإصرار، لما كنت الآن، أكتب هذه الأحرف.

ذهبت مسرعاً إلى البيت، بعد أن نجاني الله من

هلكة لم أحسب حسابها، وأملت أن أصل قبل أن تصل البقرة، ولكنني أخفقت في هذا، ووصلت «الصبحاء» أم العوف قبلي. كان وصولها مصدر قلق لجدي ووالدتي وعمتي ـ رحمهم الله جميعاً ـ ووجدت جدي واقفاً بانتظاري عند الباب الخارجي لبيتنا. ولاحظ ـ رحمه الله ـ أني غير طبعي، وفي جسمي بعض الرعشة، أحسّ بذلك عندما وضع يده على ذراع يدي اليمنى كالمعتاد، فاعتذرت أن هذا من الركض، وأن البقرة مرت دون أن ألحظها، ولما لم أجدها مع آخر البقر جئت مسرعاً.

لم يلحظ طبعاً، وهو كفيف، أني قابض على طاقيتي (كوفيتي) بيدي لإيقاف الدم. ولابد أن والدتي قد أخبرته، فيما بعد، بالحقيقة، خاصة وإنه ليس فيما فعلته

ما يُعاب إلا رأس العصا، وإذا كنت قد كذبت في ذكر السبب فلهدف نبيل، ونية طيبة، لأني كنت أريد أن لا ينشغل بال جدي ـ رحمه الله ـ وهو من أَعدُّه أغلى رجل في حياتي في تلك الأيام، وكان يرجح على والدي وعمي، لأن الحنان الذي يضفيه عليّ وعلى والدتي أمام عيني دائماً، وفي سويداء قلبي.

ولم تكن هذه هي المرة الوحيدة التي كدت أموت فيها تحت أقدام البقر وأظلافها، فبعدما يقرب من خمسة عشر عاماً من الحادثة التي ذكرتها، تعرضت لأخرى، أدهى وأمر، وكان في حوالي عام (١٣٦٧هـ) عندما كنت أدرس في القاهرة في مصر، وكنت أسير مع معالي الأخ عبدالرحمن العبدالله أبا الخيل، وزير العمل السابق، ونحن طلاب حينئذ،

كنا نسير في شارع الروضة، مقبلين على الرصيف المعد في الشارع لركوب الحافلات، وبه عمود في أعلاه فانوس للإضاءة، وإذا بقطيع من البقر مربوط ربطاً محكماً بحبل واحد، وكان حجم القطيع بحجم عرض جسر عباس وكانت البقر متجهة إلى شارع الروضة، وهي بحجم عرض شارع الروضة أيضاً، وأقبلت علينا، مندفعة، ولم ندر ما نفعل، وشلتنا المفاجأة، لأن البقر بعد الجسر فقدت انتظامها، وأيقنا بالهلاك مع هذا السيل الجارف، ولكن رحمنا الله بعمود النور في نهاية المحطة بين خط الخدمة والشارع الرئيس، «فتلولست» عليه (التفّت) وأخذت تدور حوله مما أعطانا فرصة للابتعاد والنجاة.

ولما أبعد الخطر، و «أرفخنا» (اطمأننا)، وعاد إلينا

رشدنا، وتنفسنا الصعداء، أخذنا نعلق على الأمر، وكيف أن حياتنا في لحظة، ودون مجازفة منا، أو إهمال، كانت سوف تنتهي بكارثة، وهل هناك كارثة أكبر من الموت تحت أقدام البقر؟ كيف سيكون وقع ذلك على أهلنا وأقربائنا وأصدقائنا؟ بقر تدوسنا كما تدوس حب القمح في الجرين، ولو مرت من فوقنا سيارة (روزرويس) أو (كاديلاك) لكان الأمر أهون!!

كثيرة هي الحوادث التي تأتي بالفواجع مثل هذه، فالمفاجآت التي تأتي بالنوازل التي لم يحسب الإنسان لها حساباً لا تكاد تحصى؛ فهناك مثلاً الرجل الذي ذهب إلى حفلة في فندق راق، ولبس لباس السهرة واستعد، وجاء ووقف في وسط بهو كبير، وفجأة تسقط عليه نجفة كبرى، فتقضي عليه.

حمد وصالح والتهضيل:

قلت إن التهضيل لمن لم يجرّبه جذاب، لأن الطفل ينظر فيه إلى الجوانب المضيئة، ولكنه سرعان ما يحسّ الجوانب المظلمة، والجانب المظلم هو الذي وقع فيه أخي حمد وابن عمي صالح الإبراهيم وهو لم يخطر على بالهما.

في أحد الأيام، والاثنان مشتاقان إلى تهضيل البقرة، اتفقا على أن يذهبا معاً عصراً إلى باب «الخلا» حيث تعود البقر بعد السَّرح. كان الاثنان صغيرين، ولا يعرفان الطريق، فأخذتهم الأسواق يميناً ويساراً، وأبعدا حتى صارا خارج سور المدينة، فلما تأخرا في العودة إلى البيت، وكان المتوقع أنهما يلعبان في الشارع، قلقت الوالدتان على ابنيهما، وانشغل فكرهما، فاستنجدا بي،

خاصة وأن البقرة قد عادت، مما يدل على أنهما لم يذهبا لجلبها. ورحت أسأل عنهما إلى أن عثرت عليهما بعيداً عن مكان التهضيل. فلما وصلا إلى البيت، وسئلا عن غيابهما، قالا بكل بساطة: ذهبنا نهضل البقرة، ولكنها تاهت منا، (ولا عرفنا نرجع)، ما أجمل هذا العذر الفج.

الأخ عبدالرحمن والسرح:

وذكرى هذه البقر، ونجاتي ونجاة الأخ عبدالرحمن منها ذكرتني بمشاركة له في «تهضيل» بقرتهم. وتهضيل البقر فيه جاذبية للصغير في أول الأمر، لأنه لا يعرفه معرفة جيدة، فيقبل عليه بشوق، ثم يدرك فيما بعد أنه ليس كما ظنه، سيجد فيه تعباً وانتظاراً، وأهم من هذا حرماناً من اللعب في أجمل

أوقات اللعب وهو وقت العصر حيث لا مدرسة تمنعه، ولا شمس تجعله يتجنب الخروج للشارع. والالتزام عادة يشعر بالتسلط، فأنت رهن هذا العمل، وبوتيرة واحدة، وحياة الصغار تأنف من التنظيم والالتزام، وتريد انطلاقاً لا يحده حد، ولا تحكمه أنظمة أو قوانين.

أبو أيمن ـ حفظه الله ـ مثلنا أجتذبه «التهضيل» فأقبل عليه، والأخ عبدالرحمن أبا الخيل كان وحيد والدته، ومن أسرة موسرة وينال من أهله، ومن غيرهم عناية فائقة لأدبه ومقام أهله. ويبدو أنه أيضاً هزّه ما هز أمثاله من الصغار في سنِّه، فاستولت عليه الرغبة الجامحة في أن «يهضل» بقرتهم، ولكنه مثل كل مبتدئ، جاء «يدودل إيديه»، لم يكن مستعداً بأدوات

التهضيل، وأهمها العصا، فجاء بدون عصا، وكان راعي بقرتهم «علي الباني» ويبدو أن عليّاً راعي بعض الأبقار، وهو مثل بقية رجال البادية يعرف المراعي، القريب منها والبعيد، ويعرف نبت كل روضة.

وفي تلك الأيام تصادف أن «سعادة البسام»، والبسام أخوال عبدالرحمن، وهي عتيقة للبسام، كانت في جهة «التهضيل» عند باب الخلا، وهي امرأة طويلة مهيبة كهيبة أعمامها. وكان في كلامها لكنة محببة.

رأت «سعادة» الأخ عبدالرحمن بدون عصا، فقالت:

يا ولد عمي ما معك عصا؟

قال لها عبدالرحمن: لا.

فالتفتت إلى الراعي، وقالت له:

اعط ولد عمي عصاك.

فرد عليها بقوله: «يا سعادة، هو ليس له إلا بقرة واحدة، ولا يحتاج إلى عصا، وأنا معي أربعين بقرة أحتاج (لعصا يا)!.

قالت: يا بن الهمار (الحمار)! اعطه عصاك.

فقال الراعي: سمعاً وطاعة، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وأعطاه العصا مرغماً.

فانطلقت الأبقار تجري نحو بيوت أصحابها، في حال فوضى، ولو عرفت الأبقار من هو السبب في إعطائها حريتها، وإعفائها من عصا الراعي، لدعت للمتسبب بالخير.

أما الأخ عبدالرحمن فكانت هذه «التهضيلة» بيضة الديك، واكتشف، أسرع منا، أن الأمر ليس كما يبدو للمشاهد من بعيد، وليس الخبر كالعيان.

وصلة القرابة التي بيني وبين معالي الأخ عبدالرحمن هي أن جدي «علي» خال جدته، وكانت، والدته وجدته وهو، حريصين على المجيء إلى بيتنا في الأعياد لتهنئة جدي بالعيد. وأذكر أني في أحد الأعياد وأنا مقبل على القبة لم أدر أنهم قد جاؤا إلا عندما رأيت الأخ عبدالرحمن في القبة عند القربة، ويبدو أنه لصغره لم يطق الجلوس، فراح يستكشف ما حوله علّه يجد من هم في سنّه، وكانت عليه ثياب العيد، وعليه «شطفة»، وليس في عنيزة صبي يلبس «شطفة» في تلك الأيام. ولابد أن والده قد أرسلها له من البصرة، أو والدته قد أوصت بجلبها من مكة، وعندما أريد الادعاء أنه أكبر مني سنّاً أذكره أنه كان يلبس الشطفة قبل أن أبدأ في لبس «الغترة»، وطبعاً في هذا مغالطة، وهو ينكر

هذا بشدة. على أي حال أنا الآن قد غلبته بتسجيلي هذا للتاريخ، وسأقر له بأنه أصغر مني إذا خاطر وكتب مذكراته، وبرهن على خلاف ما برهنت، أمد الله في عمره، وألبسه ثوب الصحة ضافياً، ووفقه، وأقر عينه بأهله وأولاده، وأحفاده.

هذا وقد تحدثت[1] عن الأخ عبدالرحمن عندما تحدثت عن مدرسة ابن صالح وإنشاء المدرسة السعودية، أما الأخ عبدالرحمن فكان من المتميزين في الدراسة وعلى خُلُق حسن، ونال رضى أهله ومدرسيه وعارفيه. وكان تلميذاً نابهاً، جريئاً في إلقاء الأناشيد، لا يهاب إلقاءها بلحنها كما عُلِّمَهُ. وبقي مهتماً بالدراسة في مصر لا يلهيه عنها شيء، ولم يكن به سفه مثل كثير

(١) راجع ما سبق: ١/ ٣٦٥.

من الشباب في تلك الأيام، كان همّه كله منصبّاً على دراسته، وكان فيها من المتقدمين.

ويبقى أمر يحسن إضافته هنا؛ وهو أني لم أر الغزال إلا في بيت الأخ عبدالرحمن، وكانت أليفة، وكان لها في بيتهم مكان يليق بجمالها ونظافتها.

العمّة النخلة:

النخلة عمتنا كما ورد في الأثر، وهي تستحق اللقب الذي يجعلها في الصف الأول من الأسرة، وهي شجرة مباركة، وورد ذكرها في القرآن مقترناً بالتبجيل، وكانت، ولا تزال، الشجرة الأولى في نجد، لا تزاحمها شجرة، وقد استحقت العناية من الناس ومن الدولة، واتخذت خطوات من الجميع لدفعها إلى الأمام، إلى

مقام يليق بها، وصار هناك تنافس لإنشاء مزارع لها، واختيار الأنواع الجيدة منها، وبدأ تسويقها عالمياً، وتصنيفها بأشكال مختلفة، وصارت رِفْداً وعامل إغاثة لمن يصاب بنكبة من المسلمين خارج الجزيرة، من زلازل وطوفانات وغير ذلك، والدولة تؤمّن منها كمية كبيرة لتقابل مثل هذا الاحتياج، لما تحتويه التمرة من عناصر غذائية متكاملة.

السلجة والشقراء:

في حوش البيت عندنا في عنيزة نخلتان، إحداهما «سلّجة»، والأخرى «شقراء»، تشربان من ماء البئر التي في البيت. أما الشقراء فتمرها يكنز، ولا يستفاد منها بسراً، ولكن فائدتها في تمرتها الناضجة، وأذكر أن أغلب ما يكنز في «الجصة» منها ومن أمثالها، ويبقى

إلى الموسم القادم، يؤخذ منه طوال العام، هذا إضافة إلى ما «يسرب» منه من دبس.

أما «السلجة» فهي صديقتنا، وصديقة العصفور، إذا ما نَقَّطَتْ البسرة، أو نصّفتْ فإنها تصبح بُغيتنا، نأخذ ما يقع منها، ونحتال على ما لم يقع إما بحذفه بالحجارة، أو بالصعود على مبنى البئر واللزا والحسو. ونحن والعصفور في سباق، وإن كان سباقاً خاسراً، فهو الغالب لأن له جناحين، ويستطيع أن يتمركز على «القنا» ويختار، ونكون عالة على ما يسقطه عفواً دون قصد.

و «النقادة»، التمرة التي أخذ منها نقدة أو نقدتين، من أغلى التمر عندنا، ولعل ذلك يعود إلى أن العصفور عندما ينقدها ينفتح طريق الهواء إليها فيجففها فيقل

الماء فيها ويتركز السكر.

وتسلقنا جداراً لأخذ التمر من النخلة، أو صعودنا على سطح البئر، يغضب أهلنا، وليس هذا بُخْلاً منهم، ولكن خوفاً علينا من السقوط. وفي الوقت نفسه نشعر نحن بالذنب، لأننا نعتدي على حق لم يسمح لنا بالاعتداء عليه، وبعضنا عندما يفكر في هذا يحجم، ويخشى من لم يحجم أن ينم عليه من أحجم، وهكذا نرتدع أحياناً، ويتوقف الأمر على من هو الحاضر منا من الجسورين، وهذا كله ليس بسبب الجوع، ولكنه انتقاء، وشَغل لوقت القيلولة، وقت الفراغ.

الجصة :

الجصة مكان مبني في إحدى «الصفاف» (الغرف السفلى من البيت) وجوانبها وسطحها من فروش

«الكثان»، يعمل منها غرفة صغيرة، ولها باب في جزئها الأعلى، يحاط بقماش يثبت حوله يسمى «سروال الجصة»، تجمع أطرافه وتربط، حتى لا تدخلها الحشرات، وخاصة «القعر»، لأن الباب لا يكون في العادة محكماً، وهو لا يخلو من منفذ قد ينفذ منه «القعر».

يكنز التمر في الجصة، بعد أن ينظف، ويرش بقليل من الماء، بعد أن يكتمل كنزه، ثم يوضع عليه «خصاف» ثم فروش حصى ثقيلة، ترصه رصاً محكماً حتى لا يبقى في داخله، أو بين طياته هواء. وفي أسفل «الجصة» هذه «بلبول» (بزبوز؛ حنفية) محفور تحته حفرة، تسمى «المدبسة»، يوضع فيها إناء «يتلقى» (يستقبل) ما ينزل من الدبس، عسل التمر، ولا يكون

الوعاء كبيراً، ويفرغ يومياً، خوفاً من أن يقع فيه فأر، لأنه إذا وقع لا يخرج، لأنه يمسكه وكأنه صمغ، ويصبح الدبس نجساً ومقززاً. والآفة الكبرى التي تنزل بالدبس أننا نحن الصغار عندما نتسلل في القيلولة، نسطو عليه، ونوغل في اللحس و «المطخ»، ولا نندم من الإكثار منه إلا بعد أن تستعر الحرارة في معدتنا، فنندم، ولات حين مندم. ولا نأخذ من هذا درساً فالعود في اليوم الثاني أحمد، المهم أن لا نُرى وأن لا يخبر أحد عنا.

الصوبة[1] :

يكنز القادرون من الناس تمرهم في «الجصص» جمع

---

(١) وقد تكون الصوبة حجرة أكبر من الجصة، وتُبنى باللبن أو عروق الطين أي بغير فروش.

جصة، في البيوت، ويكنز تجار التمر تمرهم المعد للبيع في «صوبات». و «الصوبة» حوض كبير يكنز فيه التمر، ويرص بالطريقة نفسها التي يرص بها التمر في «الجصة»، وذلك بوضع «خصاف» (حصير) كبير عليها، ثم يوضع فوقه «الرصايص» ليبقى مرصوصاً متماسكاً.

فوائد النخلة:

يقول المفاخرون من أهل نجد بالنخلة «إن النخلة ما يرمى منها شيء»، كل جزء منها مفيد، صغر أو كبر، جل أو حقر. تمرها طعام الإنسان، والحشف والنوى للحيوان، وعذوق النخل مكانس للبيوت، وتعمل منها حبال، والخوص يعمل منها أيضاً مكانس، وتستعمل كذلك لسفّ الحصر ونسجها، و «للمحافر»

و «الزبلان» جمع «زبيل» (الزنابيل جمع زنبيل)، ولصنع «السُّفر» جمع سفرة، وخصاصيف الصلاة، والجلوس، ولصنع «عياب» التمر (جمع عيبة)، وهي في حجم أكياس الخيش، ومثلها «القلال» جمع قلّة يحمل فيها التمر من بلد إلى بلد، وقلال تمر الخلاص من الأحساء أشهر من نار على علم، وتعمل «المهاف» المراوح من خوص النخيل.

وتستفاد «الجذامير» من النخلة، وهي ما يبقى من العسيب، بعد «سلت» الخوص منه، واستعمالات «الجذمار» لا تحصى، منها استعماله في أغراض العصا الطويلة، وفيه يحرك الجمر في التنور، وبه يوصل إلى ما ارتفع عن متناول اليد، مثل العش والقش، وكنا ونحن صغار نعرف قدره، ونعده صديقاً لأننا نمده

إلى عش العصافير، حين يعسر علينا الوصول إليه، فنبرمه، ونأخذ العش بسهولة ويسر، وما يهمنا هو ما فيه من «مطايير»، قسوة فائقة، واعتداء ظالم، وغفلة من عين الرقيب. نسأل الله أن يغفر لنا ما أتينا من هذا، وما أكثر ما أتينا منه، ولعل بعضها يطل علينا في ثنايا أسطر هذه المذكرات. فكم من قلب «أُمّية» حرقناه! وأخذنا وليدها وهي تنظر، فلم يفدها صراخها مع آذان عن الاحتجاج صماء مثل آذاننا، وكم من مطيار نظر بعين زائغة إلى أيدينا الغاشمة، وهي طويرات لا تسمن ولا تُغني من جوع، ولكنها مثل كثير مما يصاد «ضحك عليه خير من صيداته» كما يقول المثل العامي.

ومن جملة فوائد الجذمار أن الأطفال يركبونه، ويركضون به في الأسواق، متصورين أنهم يركبون

خيلاً، و «وخّر عن درب الفرس»، و «خيال الخيل وأنا أخو من طاع الله»!.

وللجذمار استعمال يجمع بين متناقضين: المدرس والتلميذ المهمل، أو المتهاون، فالمطوع (مدرّس الكُتّاب) في الغالب يكون رجلاً مسنّاً، ويصعب عليه القيام، كما سبق أن ذكرنا[1] عن الحيدان مدرّس الوالد، وما جلب الجذمار، لينبه التلميذ الغافل عن درسه، أو ليردعه عن اللعب مع جاره، فيلجأ المطوّع إلى جذمار بجانبه، يسعفه في عمله، ثم ينزله من أعلى الجدار مسحاً به إلى أسفل حيث يجلس الطالب المقصود بالعقاب، ونزول الجذمار، حاكاً بالجدار، يصاحبه عاصفة غبار تحقق الهدف وأكثر.

(١) انظر ما سبق: ص ١/ ٧٤.

وفي النخلة جزء في أعلاها هو متعة للصغار والكبار، لطعمه وفائدته، وهو «الجُمَّار»[1] ، ويسمى أحياناً بحق «الشحم» وهو وصف يليق به لبياضه، ولأنه محّ النخلة، وقلبها عند ملتقى العسبان في أعلاها.

وهناك جذع النخلة، وهو أكبر جزء فيها وأطوله، ويمتد من الأرض إلى العسبان التي يحملها، ويزيد طوله مع الوقت، فتصبح النخلة «عيدانه» أي طويلة عالية، ويحتاج «خارفها» وجاني ثمرتها إلى «كرّ» ليصعد

---

(١) «الجمّار» يحصل عليه بطريقتين:

* الأولى : أن يستغنى عن النخلة، أو فحل النخل، لسبب من الأسباب، فتجمّر، وقد يجمرها الأعداء، وهذه هي الأقل حدوثاً.

* والثانية : أن يقلع القنو الذي فيه سوس، أو يقلع للتخفيف عن النخلة، وفي جذع القنو جمّار، ويسمى القنو المقلوع مع جماره «سوّاقة»، وهذه هي الأكثر حدوثاً، وإشاعة فرح للأطفال.

إليها، و «الكرّ» أداة يجعلها تحيط بالنخلة وبوسط خارفها الذي ينقلها من أسفل إلى أعلى، خطوة خطوة، وينتقل معها حتى يصل أعلاها ثم يجني التمر وينزل كما صعد.

وفي الجذع الكرب، وهي ما يتبقى بعد قص العسيب. وجذع النخلة يستفاد منه في تسقيف بعض السقوف وفي وضعه على مجاري المياه في البساتين، ليكون جسراً يُنتقل عليه بأمان[١].

و «الكرب» له استعمال متعدد الجوانب، منه أنه وقود للتنور، وللتدفئة لمن لا يجد حطباً، ونحن الصغار نُعدّه ليكون بعيراً نجرّه، ونضع عليه مسمارين كأنهما

---

(١) وتستعمل جذوع النخل (النبوع) مرامل (جدران) للعيون (الثبار جمع ثبرة)، وبخاصة تلك التي في الوادي، بدلاً من طي الحصى.

«شداد»، ونجره بحبل كأنه رسن. وليس لدينا في تلك السن المبكرة شك في أن ما نجره بعير يحمل حملاً، وننسى أن البعير لابد له من أرجل، وأنه ليس هناك بعير يزحف على بطنه. هذا أمر يحتاج إلى تفكير وليس عندنا فكر أو وقت للتدبر.

وهناك «الليف»، وهو غشاء خشن من نسيج، جميل للغرض الذي خلقه الله له، وموقعه بجانب الكرب، ومن جملة ما يستعمل له أنه يصلح حشواً لبعض المخدات، وما يُفصَّل لوقاية ظهر الدابة عن احتكاك الشداد، أو الكَتَب، أو وثارة الحمار. ويستعمل كذلك للغسيل، تنظف به الأواني، والقراوة، وأحواض شرب الحيوان.

وهكذا ليس في النخلة ما يمكن الاستغناء عنه، ففي كل شيء فائدة، حتى الشوكة، تستعملها النساء

لفرق شعرهن، وتستعمل لتدبيس أكياس الخيش.

أعرف أن ما ذكرته سوف يكون مملاً، ولكني أقدمت على وضعه توثيقاً لأمور لن يعرفها جيل مقبل من شباب هذا البلد، وكنا نحن نعرفها معرفة الخبراء.

النخلة والزيتونة:

هاتان الشجرتان متماثلتان في الأهمية في البلدان التي تتوافر إحداهما فيها، أو كلتاهما. وكلتاهما مذكورتان، بامتداح، في القرآن، وكلتاهما لا يحذف من أجزائها شيء. لقد عددت فوائد النخلة، أما الزيتونة فقد رأيت برنامجاً في تلفاز المغرب عن الزيتونة، وما يستفاد من ثمرتها، وعدّد البرنامج العصرات وما تتميز به كل عصره وسعرها، ثم ذكر البرنامج ما يعمل «بالحثل» الذي يبقى

بعد العصر، فقال إن النوى يطحن، فشيء منه يُعطي علفاً للحيوان، وقد يخلط مع غيره، ويخصص جزء للوقود، وجزء عازل في الجدران عند البناء[1].

النخلة والتجارب:

ومن خبرة الناس في النخل، أنهم يعطون نصائح صادقة في طريقة غرسها، والعناية بها، ونصيحتهم تأتي عن تجربة طويلة مروا بها، أو أخذوها عن آبائهم وأجدادهم، جيلاً بعد جيل، وهذه المعرفة جاءت نتيجة تجارب، ودقة ملاحظة، ونجاح وفشل. وليكون للنصيحة حسن تلقٍّ فإنهم يأتون بها على لسان النخلة نفسها أحياناً، وكأنها هي أعرف بنفسها، ولا تقبل أن

(١) وقد فهمت أن إخواننا في العراق استخرجوا عازلاً من جذامير النخل وسعفها في البناء الحديث.

يتكلم باسمها أحد، وهي ذات لسان ناطق فصيح! عن بعض الإرشاد والنصيحة تقول:

«إبعدها عني، وخذ حقها مني».

وهذا عهد من النخلة للفلاح النهم، الذي يريد أن يغرس أكبر عدد في مساحة محدودة، ليجني رطباً أكثر، والنخلة هنا تؤكد له، وتتعهد بميثاق أن ما سوف يخسره في المساحة سوف تعوّضه هي له بكُثرة الرطب وجودته. وهذه حقيقة أصبحت عند الفلاحين من المبادئ الثابتة، ولا أحد يشك في صحتها.

والشجرة التي من طبيعتها أن تطول، نخلة أو غيرها، تحب الشمس، ولا تستغني عنها، وتتبعها، ولو كانت تمشي على قدم لمشت إلى حيث تسطع؛

ولهذا فإنها إذا ما جاء عليها ظل بيت، أو شجرة أخرى، فإنها تميل إلى الجهة التي تأتي منها الشمس، لتتمتع بأشعتها ما أمكنها ذلك، ولهذا يأتي بعضها أعوجَ مائلاً نحو جهة الشمس، لأن بقاءه مستقيماً يحرمه من أشعة الشمس المباشرة.

وهذا ما يعلل به الخبراء طول شجر الغابات، لأن كل واحدة منها، تحاول أن ترتفع عن جارتها حتى لا يحرمها ظل هذه الجارة من الشمس، مشرقة أو غاربة، أو حينما تكون في كبد السماء، فيكون هناك سباق حام بين الشجر، لا ينتهي.

تجارب على حمل النخلة:

وجد الفلاحون بالتجربة أن النخلة متى «أثقلت»

وصار عليها «دومة»، أي أحاطت بها القنوان إحاطة الخاتم بالإصبع، فإن الحمل لا يجود، وتكون التمرة صغيرة، فعمدوا إلى تخفيف الحمل عنها، بقطع قنا وترك قنا، وحمدوا هذا العمل بعد أن جربوه.

ثم نقل الأمريكيون النخلة من الشرق إلى أجزاء من بلادهم، طبيعتها موائمة للنخلة والجو الذي تعودت عليه، وأدخلوا على غرسها، والعناية بها، ما توصلت إليه الطرق الحديثة في الغرس والملاحظة والمتابعة في العناية بها في جميع مراحل النمو والإثمار. وقد توصلوا إلى طريقة أفضل للتخفيف عن النخلة، فبدلاً من أن يقطعوا قنا صاروا يخففون من كل قنا. يقطعون، بعد اللقاح بإسبوعين، قطعاً منظماً، ما يقرب من أربع أو خمس بوصات من رؤوس الشماريخ،

ويعمدون إلى وسط القنا، وهو أكبر ثلاثة أقسام في القنا من الشماريخ، فيقطعون عدداً من شماريخه، وبقدر ما يقطعون يجود الرطب، ولكن المزارع أحياناً لا تطاوعه يده أن يجور على القنا، فلا يأخذ إلا ثمانية شماريخ، أو عشرة، ولكن عندما ينضج التمر، ويرى وفرة ما في القنا من الرطب أو التمر، يتمنى أن لو كان أخذ أكثر مما أخذ، ويعد نفسه أن يفعل ذلك في العام القادم، ولكنه لا يفعل، لأنه عندما يقف أمام القنا يجبن عن أن يأخذ أكثر مما أخذ في العام الماضي، و «تدركه لآمة الجزار»، وهذا المثل له قصة:

لآمة الجزار:

ابن الجزار شاعر معروف من شعراء بلاط بعض سلاطين المماليك، وكان في أول عمره جزاراً، في

دكان أبيه، فلما قال الشعر، وبرز فيه، التحق ببلاط السلطان. وفي يوم الأيام اشتاق إلى زملائه الجزارين، وقرر أن يزورهم، فقعد عند أحدهم في دكانه، وتجاذبوا أطراف الحديث عن الأيام الخوالي، وعندما أراد المغادرة أراد أن يشتري لحمة، فطلب من الجزار أن يقطع له اللحمة، فقال له صاحبه:

أنت ماهر في الصنعة، قم واقطع لنفسك ما تشاء، فقام، وقابل الخروف المعلّق، ودار حوله، فقطع أسوأ جزء فيه.

فتعجب منه صاحبه، وقال له:

هل نسيت الصنعة؟

قال: لا، لكني عندما وقفت أمام الخروف نسيت أني مشترٍ، وظننتني بائعاً، فادركتني لآمة الجزار.

فأصبحت هذه الجملة مثلاً.

الطول طول النخلة:

الطول طول النخلة والعقل عقل الصّخلة، هذا مثل تقوله الأمهات تهزيئاً لأولادهن عندما يأتون بخطأ لا يليق بسنهم، وهذا نصيب الأبناء من النخلة، ولهم نصيب آخر فيه شيء من شقاوتهم. كنا ونحن صغار في المدرسة في مكة المُلاسَنة بيننا لا تنقطع، فهذا طويل يقول للقصير: كل قصير نقمة، والقصير يقول للطويل: يا نخلة رابغ، ولا أدري لماذا اختاروا نخلة رابغ. هاتان الجملتان كفيلتان أن تثيرا أخذاً ورداً، بصوت عال، وحركات استفزاز، تبدأ هذه الكلمات طائرة في الهواء، ثم تتحول إلى عراك وهراش، وضرب بالأيدي، وركل بالأرجل، وربما يتلو ذلك جزاء شديد من المدرّس.

ولا ننسى الطلاب الآخرين الحاضرين، وبعضهم يشجع هذا وبعضهم يشجع ذاك، ويحرصون على أن لا تخمد النار، بل تزيد ضراما، يضعون الحطب، دون غفلة، وهم يعرفون الجزل من الوقود، والكلمات التي تثير الحماس، فيغرفون من قاموسها ما شاء لهم شرهم.

ولا أزال حائراً من اختصاص نخلة رابغ بالطول دون غيرها من النخل الذي ينبت في أرض سواها، هل هناك على طريق الركب من مكة إلى المدينة نخيل «عيادين» (طوال) في بعض الحقول مهملة لطولها، والاستغناء عنها بغيرها، مما يستطاع جني تمره بسهوله، أم أن هناك تفسيراً آخر؟ أما «المتخاصمان» فلا يقفان عند هذه الجملة ليفكرا في مرماها وأصله، ولو فعلوا لبردت الحرب، وألقي السلاح، ولكن الشيطان وجنده

لا يدعونهم يفعلون.

لا يُستغرب الاهتمام بالنخلة في نجد، فهي عنصر مهم في حياة الناس، ولهذا تفكيرهم لا يذهب بعيداً عنها، فحديثهم عنها، وأمثالهم منها، واهتمامهم بها، وبما عندهم من أعدادها، وأنواعها، وهي فخر الغني على الفقير، وطموح الفقير اقتناء نخلة في حياته.

والطرائف حول النخلة كثيرة، وسوف اقتصر على ما كان متداولاً منها في ذلك الزمن، وهذه الطرائف لا تخلو من حِكَمٍ ومواعظ، وهي غلاف مبهج حول هذه الحكم والمواعظ.

ومن الطرائف التي تخفي حكمة الحذر، وتدعو إلى الأخذ بالأحوط، وتظهر أن الحزم خير من التراخي،

وأنّ سوء النية ببعض من تجفل النفس منه حقيق بالعاقل لأن قلب المؤمن دليله:

أراد رجل أن يصعد إلى أعلى نخلة ليجني من رطبها، وكان يلبس حذاءً، مع قلة ما يلبس من الأحذية في ذلك الزمن، ولاحظ أن رجلاً كان حاضراً ينظر إلى حذائه، واستشف من حدة نظرته إلى أن عينه على الحذاء، فخلع الحذاء، ووضعه تحت إبطه، وصعد به معه.

فقال له الرجل: إن أخذ الحذاء معك سوف يعيقك، وسوف يكون سبباً في إزعاجك، فلماذا لا تتركه عند قدم النخلة حتى تنزل؟

فرد صاحب الحذاء، وقد تأكد من سوء نيته:

أخشى أن يكون الدرب فوقاني.

أصبحت هذه المحاورة على الألسنة، وجاء منها مثل يردده الناس: «الدرب فوقاني»[1].

النخلة والناموسة:

يتردّد على ألسنة الناس حوار جرى بين ناموسة ونخلة، هذه بقماءتها وصغرها، وهذه بطولها وفراهتها،

---

(١) ويقال إن قصة المثل كالتالي:

كان أحد الرجال من إحدى بلدان القصيم في طريقه من بلدته إلى أخرى، فمرّ بمزرعة، وكان عليه مشلح ويلبس حذاءً، فطمع المزارع به. ودعاه للقهوة، وراح يشتغل كأنه يعدها. ثم قال للضيف:

الله يعافيك، انظر هذا «المرباع» نزِّل لنا منها «قدوع»، يريده أن ينزل تمراً من النخلة تُشرب معه القهوة.

فقال الضيف: سمعاً وطاعة.

وتحزّم بمشلحه، ووضع نعليه داخل محزمه.

فقال له المزارع: لماذا ترقى النخلة بالمشلح والنعال؟

قال: أخاف أن يصير الدرب «فوقاني»؟

يقال إن ناموسة وقعت على طرف خوصة في نخلة، وبعد برهة قالت للنخلة:

يا نخلة تمسكي فأنا سوف أطير.

فقالت لها النخلة.

لم أعلم بوقوعك عليّ حتى أهتم بطيرانك عني.

وهذه حكمة ترى كيف أن التافهين يقدرون أنفسهم أكثر مما تستحق، ولا ينبههم إلى كبريائهم، وغطرستهم إلا صفعة على الوجه تماثل قول النخلة، وقد أصبح القول الآتي مثلاً: «قالت الناموسة للنخلة تمسّكي».

ويكفي هذا ليعرف السامع بقية القصة.

وقد يهدد شخص ضعيف إنساناً قوياً، أو يتوعده،

فبدلاً من أن يقول القوي للمهدد: «أبشر بطول سلامة يا مربع»، يقول «يا نخلة تمسكي».

النخلة وعين الحسد:

و «النحاتة»: «النضل»، «الحسد» أمور مهمة في مجتمعنا، والنخلة كذلك مهمة، فلابد أن يلتقيا في بعض المنعطفات، وورد في هذا طرائف، تسجل أهمية هذين العنصرين في مجتمعنا، ومما سأذكره طرائف أكثر منها فوائد.

ويعلل الناس دائماً الضرر الذي حدث ولم يعرفوا له سبباً بالعين. فتتهم العين مثلاً في مرض شخص وهي بريئة، ولكنها أقرب متكإٍ مريح، فلا يجهدون أنفسهم في البحث عن أسباب أخرى، ولهذا فالناس

يقظون تجاه أي كلمة تقال قد توحي أن صاحبها «عَاين» أو «مُفَطِّن» (أي مُذكِّر لعاين).

ومثل هذه الكلمة مرعب للناس، ولهذا فهم بمجرد أن يسمعوا الكلمة الموهمة من أحد، لا يستحيون أو يترددون أن يطلبوا من صاحبها أن يذكر الله. وهناك جمل تدل على العين والعاين سوف أقصُّها هنا، لأن من طبيعتي أن أحاول طرد الملل، (العدو الأول للقارئ)، ولهذا ألجأ إلى دوائه في نظري، وهو «الإحماض»، وقد سبق أن أشرت إليه في كتابي: «أي بني»، وفي كتابي: «إطلالة على التراث».

والآن ندلف إلى بعض القصص في هذا المجال؛ مجال النخلة والعين:

عصفورها فيها:

من المعروف أن العصفور هو أول مكتشف لأول رطبة تتمّر في النخلة، وفي زمن «المقيظ» في الصيف تزهو النخيل، ويتوافر الرطب، فيرغد العصفور وينعم. لهذا فهو دائماً في أعلاها بين عسبانها يختار من تمرها الجياد. ويقال إن رجلاً «عائناً» صعد إلى نخلة، فلما استوى في أعلاها، جاء عصفور على معتاده، وحطّ على عسيب، وكان الرجل قد جلس على عسيب أمامه، فخاطبه الرجل قائلاً:

ابتعد فعصفورها فيها (يعني نفسه).

فانكسر الغصن الذي كان الرجل جالساً عليه. أي أن الرجل حسد نفسه (نضلها)، (نحتها).

وكلمة عصفورها تحمل معنى التشبيه، فقد شبه الرجل بالعصفور، وهذه بهذه الصيغة «نضل». وقليلاً ما يحسد المرء نفسه، ومن المؤكد أن الرجل لم يقصد أذى نفسه ولكن الجملة أقوى من قصده! وقد أصبحت هذه الجملة «عصفورها فيها» مثلاً.

الدلة والفناجيل (الفناجين):

وبعض جمل العائنين تدل على دقة، وسرعة بديهة، وهي من مرجحات الإتهام «بالنضل» (الحسد):

كان رجل يستريح تحت نخلة، يستظل بظلها، وحوله «رجنة» دجاجة ومعها فراخها (كتاكيتها)، تتمتع مثله بظل بعض النخيل، وتبحث عن رزقها. وفجأة انقضّت عليها «جليباء» (حدأة) واختطفت

الدجاجة فقال الرجل بسرعة فائقة:

إهْبَيْ، أخذت الدلّة، وتركت الفناجيل! فاصطدمت الحدأة بأحد عسبان نخلة، ووقعت ميتة على الأرض، ونجت الدجاجة!

كلمة «إهْبَيْ» مؤنثة، و «إهِبْ» أو «إهْبْ» للمذكّر، وهما الكلمتان اللتان تسبقان ما يريد العائن أن ينبه إليه من أنه قصد الحسد، وينطلق باقي الجملة بعدهما مثل الرصاصة إلى الهدف، ولهذا بمجرد أن ينطق بأحدهما يقال له قل: لا إله إلا الله.

في صيف إحدى السنوات وأنا صغير «أُعْطيت» عن أكل الرطب، أي أصابتني عين، كما ظن أهلي إذ لا سبب واضحاً غير العين أمامهم، ولم أبح لهم بما يدور داخل

نفسي مما يفسر عزوفي عن أكل الرطب، رغم حبي له، ورؤيتي من «الزِّقيط» ما يغري بالأكل. وكان ما أخفيه هو أن أهلي ابتاعوا في أول الموسم رطباً جديداً من رجل يُعرف بشراسته، وبعد أن أكلت منه خطر في بالي خاطر غريب مزعج، وهو أننا بعد أن أكلناه فقد يأتي البائع، ويردّ لنا نقودنا، ويطالب بتمره، فيتعذر علينا الاستجابة لطلبه، وقد يضطر لشق بطوننا، ليأخذ ما فيها، فتركت أكل الرطب لأجل هذا الهاجس الغريب. ومن حسن الحظ أن هذا العزوف اقتصر على صيف ذاك العام. وفي العام التالي نسيت الأمر بأكمله أو ربما كان العائن مات!!. وفي هذا العام الذي مرّ كبرت، وفهمت الأمور أكثر من الماضي، وقد اكتشفت أن شراسة الرجل إنما هي على أناس معينين، وصفهم لا ينطبق علينا.

رُقى العين:

العين حق، وبعض المفسرين يرى أن قول يعقوب لأبنائه عند دخولهم مصر: (ادخلوا من أبواب متفرقة)، إنما قصد إبعاد العين عنهم. وللعين رقية مشروعة، وهي قراءة آيات من القرآن، والنفث بها على من أصابته عين. فآية الكرسي والمعوذتان، ومطلع سورة تبارك، أول ما يأتي على الذهن في الرقية، وقد يتبع هذا أدعية يرى أنها مناسبة للحالة القائمة.

وأذكر أنهم في عنيزة أحياناً إذا أرادوا رقية لامرأة ذهبوا بطويسة فيه ماء، إلى أحد المشائخ المعروفين بورعهم وتقواهم، فقرأهم فيها، وجاؤا بها إليها وشربتها. وأحياناً يقف صبي عند باب المسجد، بعد إحدى الصلوات ومعه طويسة فيها ماء، يقرأ فيها كل خارج، أسمعه يقول:

بسم الله الشافي، اللهم اشفه، والبسه ثوب الصحة، وبعضهم يقول: رب الناس، إله الناس، أزل الباس، أنت الشافي، اشفه واشف مرضى المسلمين.

وقد ورد في كتاب «ثمرات الأوراق، لابن حجة الحموي» (ص: ٤٧٩)، رقية، يجفل من يدعي أنه عائن إذا سمعها، ويخشى أن يحل به ما سمعه فيها، ولهذا يحفظها بعض الناس ليخيف بعض من يتظاهرون بأنهم يتقنون هذه السجية، ويسرع الناس إلى تصديقهم، ونَشْر هذا عنهم:

بسم الله، حبس حابس، وحجر يابس، وشهاب قابس، رددت عين العائن عليه، وعلى أحب الناس إليه، في كليتيه رشيق، وفي ماله يليق، ﴿فارجع البصر ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾.

الإبل:

حبي للنخلة وللبقرة لا يقل عنه حبي للإبل، والإبل في زمننا لها أهمية عظمى في حياة الناس، وحبي لها قد يكون مستغرباً إذا قورن بحبي للدجاج والبقر، ولم أكن أرى الإبل صبحاً ومساءًا بقربي. وحديثي عنها سوف يكون عن مشاهدة، وبعضه عن سماع، لأني كنت صغيراً، وأعتمد فيما لم أره على ما يقوله من حولي ممن له صلة وثيقة بالإبل، ولهم خبرة تجعلني أثق بما يقولونه. وهناك أمور تدور عن الإبل على ألسنة الناس قد يكون فيها مغالاة، مثل ما يقصّ عن حقد الجمل مما يدخل تحت رواية «أون» أي يقولون، دون نسبة القول إلى شخص بعينه، وأصبحت «أون» هذه وكالة أخبار، فإذا ما قال أحدهم قولاً لم يعزه إلى أحد، وسئل عن

قائله قال: من وكالة «أون»!.

الإبل في جزيرة العرب أليفة، لأنها مملوكة، فرعاية صاحبها وراعيها تجعل بينها وبينه صلة محبة ومنفعة، فهي محبة لمن يعلفها، وتحب التدليل، وإذا عرف الإنسان الطريق إلى قلوبها ملكها، وهي تحب أن يمسّد صاحبها على رقبتها وعندي ناقة اسمها «هْدَيِّة» الآن، إذا أخذت تمسد على رقبتها، وقربت من السنام، أرخْت رأسها إلى قرب قدميك وأحياناً وأنت واقف قربها تأتي وتضع رأسها على كتفك، وإذا ابتعدت تجاه البيت تحس في نظراتها الأسى لأنك سوف تتركها.

حبي للإبل كان أحياناً يغريني أن أحضر واحدة في الحوش الخلفي لبيتنا، وكنت أخشى من احتجاج

أهل بيتي، وعندهم حجج كثيرة ضد هذا. وفي يوم من الأيام فاجأهم ابني محمد بواحدة على وشك ولادة، وبعد يومين رزقت ببكرة ملحاء جميلة مثل أمها، وللونها سميناها «شامة» من أسماء الأضداد، ولأن محمداً هو الذي اشتراها، وأدخلها البيت لم يحتج أحد، أما أنا فلم آمر بها ولم تسؤني[1]، وعلى الرغم من أني في داخلي فرح طرب إلا إني لم أظهر هذه الفرحة خوفاً أن ينفجر التأنيب في وجهي.

و «شامة» بعد ما يقرب من شهر إذا اقترب منها أحد أخذت تستعرض كل الحركات التي في سليقتها من رقص، وجري، ورمح، فذكرتني ببقرتنا الشهباء، قبل سبعين عاماً.

---

(١) بعد ثلاثة أيام جاء بأخرى شقحاء ومعها ابنتها مثلها.

والإبل في ذلك الزمن كلها فوائد، فهي خيرٌ مركوبة، وخير حاملة للأثقال، لحمها ثمين، ووبرها مطلوب، تعرف الطريق، وتصبر على العطش، هي ابنة الصحراء وسفينتها بحق، لا تكلف صاحبها كثيراً، في وقت الربيع. ومن أفضل أوقات أكلها أن يقعد صاحبها، أو راعيها، يعلفها النبات الأخضر داخل العرفج، تأكله بهناءة ولذة، ثم فيما بعد تجتره على مهلها بهدوء، ومظهرها في عين الصغير وهي تجترّ مصدر دهشة وعجب، فهو مندهش ويعجب من كيفية خروج الأكل من بطنها ومن مضغه ثم ابتلاعه مرة أخرى وهي تعود فتخرجه لتمضغه، وكل هذا أمر لا يستطيع تفكيره الوصول إلى فهمه.

والناقة إذا أكثرت من العشب الأخضر أو النبت

مثل البرسيم، فإنها تشتاق إلى شجر الحمض وهو نبت حامض، فتنتقل إليه. وهذا الانتقال من طبيعة البشر أيضاً، فأحدنا إذا أكثر من الأكل المالح اشتاق إلى أكل الحلو، فإذا أكثر من الحلو تطلّع إلى أكل المالح. وهكذا فسبحان من وزن أمور الكون بما فيه المصلحة، وسبحان من خلق الخلق، وجعل لهم من الطبائع التي بغيرها لا توجد السعادة أو تعمّ.

رمحة بعير:

رؤية الإبل في المدينة وخارجها أمر معتاد، يراها الناس كل يوم باركة أو واقفة، محملة أو غير محملة، مجلوبة أو مباعة، بعيرُ ذبح، أو بعير ركوب، أو بعير حمل. وفي كل يوم عصراً يرى الناس بعض الإبل قادمة من

«صعافيق» أو غيره عليها الحطب، وقد يأتي ضيوف ينزلون عند صاحب بيت فتبقى إبلهم باركة أمام البيت، تُعلف أو تجتر.

تحدثت عن وجود الإبل في البلدة تمهيداً لسرد حادثة وقعت لي مع بعير في سوق الهفوف الذي يعد الشارع الرئيس الثاني بعنيزة بعد سوق المسوكف، وسوق الهفوف في نظرنا في تلك الأيام سوق واسع، ولكنه في الحقيقة ضيق بدليل أن البعير إذا مر به وعليه حمل لم يستطع أحد أن يتجاوزه. وكنت أسير خلف واحد من هذه الإبل، وأعجبني نقله لرجل من رجليه بعد أخرى، ولفتت نظري العصبة التي في مؤخرة قدمه الخلفية، فكان إذا قدّم رجلاً مسكت عصبة الأخرى في الرجل المتأخرة، القريبة مني. وانسجمت

في عملي هذا، فإذا قدّم اليمنى مسكت اليسرى، وإذا قدّم اليسرى مسكت اليمنى، واستمتعت بهذه اللعبة، التي جعلتني أنسى أن الجمل سدّ الطريق بمشيه الوئيد. ويبدو أني مع التجربة، وتكرارها بدأت أحكم القبضة على العصبة، وأنجرّ إلى الأمام مع رجل البعير. وفجأة رمحني برجله على ساقي، رمحة أبعدتني مترين تقريباً إلى الخلف، و «انزلغ» (انجرح) ساقي، ولكني نهضت، وأزلت الغبار عن ثيابي، وواصلت السير، ولم تؤلمني الضربة، لأن ركلة الجمل رحيمة، فقدمه مثل المخدة لا تؤذي إلا إذا جاءت على الكُلا، وما آلمني حقاً هو ضحك أصحاب الدكاكين من حولي، ولا ألومهم، ولم أعرف خطئي في مسك عصب البعير إلا فيما بعد. لابد أن البعير ظنني دويبة أو حيواناً صغيراً

يريد به الأذى، أو شيئاً عالقاً به، فأراد أن يتخلص منه، فاستعمل سلاحه المعد لهذا.

مع هذا فلم أحقد عليه، ولم أغضب من فعله، ولم أحمل شيئاً في نفسي عليه. وبقي حب الإبل في قلبي إلى اليوم، يتحرك الفؤاد كلما رأيت بعيراً، خاصة عندما يكون في الصحراء، بيئته الطبيعية، ومحيطه الأصل، ومقره المفضل. بل إني أركز نظري عليه في التلفاز، وأدعو للمصور إذا أحسن التقاط الصورة.

وترجح الإبل عندي على الخيل، فالخيل «نزرة» أي ليست هادئة، حركتها كثيرة ومفاجئة، وضربة رجلها قاتلة، وعندما تلتفت فالتفاتتها مذعورة، وإذا صادف أن صاحبها قريب منها فقد تضربه برأسها، أما البعير فتصرفاتها ملكية إذا التفتت التفتت بهدوء،

وكأنها تستأذن الهواء الذي حول رأسها ورقبتها، حتى لو سمعت ما يزعجها. وقد هيأ الله جسمها لراكبها أن «ينسلح» انسلاحاً فيما لو وقع. ووقوع المرء من ظهرها تدريج، ولهذا قلَّ أن يتأذى راكبها من الوقوع من فوق ظهرها، ويقول الناس: إذا وقع راكب البعير، قالت: «اسم الله عليك»، بينما يقول الحمار إذا وقع راكبه من فوق ظهره «كسر»، والحصان والحمار في هذا سواء.

وسبب هذا التحيز للبعير هو أنني في صغري رأيت البعير كثيراً، ولم أر الخيل، إلا حصاناً واحداً خارجاً من بيت التمم (عبيدان التميمي). وربما كان سبب تحيزي للبعير هو قصة خضير (الحصان المتجنس) أثّرت عليّ بسبب سوء خضير هذا!.

من أجمل مناظر الناقة أن تكون نظيفة سمينة ترعى

في البر، أو داخلة إلى المدينة، وعليها راكب، وعدتها مكتملة من «شداد» الكور، والخرج والمزودة والسفايف، والخطام «المدندش»، والسفايف منسابة على جانبي الناقة، تتدلى من فوق الخرج والمزودة إلى أسفل، وتتطاوح مع حركة الناقة، بألوانها المختلفة، وهي من صوف مفتول، ومعها بعض قطع الجلد. وإذا كانت النوق أكثر من واحدة جاءت مع الضيوف أو «المطاريش» (المسافرين)، نقف بجانبها، ونتفحصها، ونقارن بينها بألوانها، وبناء جسمها، ونظراتها، ونهضتها وبركتها، عالم متكامل بالنسبة لنا، نعيش أياماً لا حديث لنا غيرها.

هذه فئة من الإبل، والفئة الثانية التي يؤتى بها من البر للبيع، لها منظر بديع، وهي تتزاحم عبر الشوارع

في طريقها إلى «المجلس»، وعندما يراها الناس مقبلة يفسحون لها الطريق، ويقفون على مداخل البيوت، وأعتابها، لأن رقبتها وطولها وارتفاعها يجعلها لا ترى من عند أقدامها، ومن السهولة أن تطأ بمناسمها من لم يتدارك نفسه، ويبعد عن طريقها. والإبل بهذه الصورة، داخل المدينة، لا قاعدة عندها في المشي بانتظام إلا إذا عودت على مثل هذا كإبل الحجاز، التي تجلبُ أحمالاً منتظمة من القرى إلى المدن، وهي جمال مدربة على التقاطر بانتظام، وكل واحدة مقرون «رسنها» في رأسها إلى مؤخرة شداد أختها خلفها، وهي ليست بصحة الإبل القادمة من الصحراء التي لم يسبق لها حمل بضاعة، ولا دربت، ولم يسبق لها أن مرّت من شوارع، وجمالها في صحتها، ونظافتها، وحيويتها، وفي الغالب

تكون صغيرة السن، والصغر جمال.

وأذكر أن سوق الإبل يزدهر قرب عيد الأضحى، لأن بعض الناس، يشتريها ليضحي بها، وبعضهم يشتريها، ليذهب عليها إلى الحج. ويكون سعرها مرتفعاً في هذا الوقت، لكثرة الطلب عليها، ولعل الناس لا يبكرون بشرائها لرحلة الحج لأسباب منها: أنه لا يكون لها مكان في بيوتهم، ومنها أن قيمة العلف لمدة شهر أو شهرين قبل سفر ركب الحاج مكلفة، ومنها البعير نفسه الآتي من البر، بصحة جيدة، وقوية، نتيجة وجود الإبل في الهواء الطلق، محيطها الطبيعي، ولحسن التغذية وتنوعها وللمشي المستمر بتؤدة وطمأنينة، مما يعطي عضلاتها قوة.

وكنا نفرّق بين أنواع الإبل، فهذه الرحول، وهذه

الفاطر، والفاطر، بالذات، تجذب نظرنا لسمنها، وامتلاء سنامها، ومن امتلائه ترى أعلاه يميل إلى أحد الجانبين، وقيل لنا في ذلك الزمن أن الفاطر سميت فاطراً لأن سنامها من كثرة الشحم يتفطر (يتشقق) أحياناً. ويقال إن أصحابها في بعض الأحيان إذا زاد الأمر يخزمون شفاهها (مشافرها) بخزام مهيأ لذلك، ويبدو أن هذه الأقوال لا تخلو من منطق. أما الحقيقة فعند البادية، ومعلوماتهم اليوم لا تقل عن معلومات آبائهم وأجدادهم.

وهناك قول طريف، فيه صدق وواقع:

قيل للناقة(١): ما بال سنامك أعوج، مائل؟

---

(١) الناقة كانت فاطراً، والفاطر ما ظهر نابها: فاطر قشرا ولا نْتيب مْعَسوفه، شمّخ النابين مثل الشوكتين، فالتسمية لها علاقة بعمر الناقة أي سنّها..

قالت: ألم تروا شيئاً معوجّاً في عضلاتي غير سنامي؟ كل شيء فيَّ أعوج.

يقال هذا لمن انتقد شخصاً في أمر أخطأ فيه، في حين أن الناس يرون أن كل حياته عوجاء، فيقولون هذا القول.

وهناك كذلك منظر مايزال في ذهني وكأني أراه أمامي اليوم، وقد رأيته وأنا في الثالثة أو الرابعة من عمري، أو كنت أكبر من ذلك، فقد كنت صغير الجسم، وبالإمكان حملي بسهولة، حتى لو كنت في السادسة من عمري، ويرجح هذا إدراكي لتفصيل الحادث، وإن كان بعضه من السماع عنه فيما بعد.

وأذكر أننا، وأناساً كثيرين، وقفنا على مفترق الطريق

في حي «الملاح» في عنيزة، فشعبة منه تذهب للدغيثرية، والأخرى للسلسلة، وجاء ما كنا في انتظاره، عدد من الإبل، عليها ركابها، تتزاحم، يسيل بها أبطح الملاح، وأمامها رجل يحمل علماً كبيراً جداً، وبجانبه رجل على بعيره، يحمل رأس إنسان، غرس في رمح، وعلى الرأس جدائل، اثنتان، وفهمت حينئذ أنه رأس أحد العصاة، وُكل إلى أمير عنيزة تتبعه والقضاء عليه، وهذه سرية ذهبت لهذا الغرض، وأتت به على الشكل الذي ذكرناه.

وأذكر أني رأيت هذا «البيرق» العلم الكبير الطويل العريض في سنة لاحقة في «المجلس» أثناء عرضة من العرضات، وقد كتب عليه:

«نصرٌ من الله وفتح قريب».

ثم لم أره بعد أن كبرت، فهل هذا علم الحرب؟ أو كان علم المملكة، ثم بُدِّل؟ وكنت أنوي أن استقصي هذا الأمر فيما كتب عن الملك عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ أو أسأل كبار السن. وبقيت على هذه النيّة في السؤال إلى أن وقع في يدي صورة كتاب لحسين حسني «مذكرات ضابط عثماني في نجد: الأوضاع العامة في منطقة نجد»[(١)] ووجدته يقول في صفحة: (٧١):

«وعَلَم أهل الرياض باللون الأخضر، وفي وسطه لا إله إلا الله، محمد رسول الله، وعلم آل سعود باللون الأخضر، وفي وسطه (الآية الكريمة) «نصر من الله

---

(١) ترجم الكتاب: د. سهيل صابان، الناشر «كتب».
عين المؤلف ضابطاً في منطقة القصيم من قبل الدولة العثمانية، بعد مقتل حسن شكري، في معركة البكيرية، وبقي في منصبه سنة ونصف، فلما يئس من أداء عمله هناك فرّ من الجيش إلى الكويت، وكتب هذه المذكرات في مصر عام ١٣٢٤هـ.

وفتح قريب»، وتحتها عبارة: «إمام المسلمين».

وهذه الأعلام بأنواعها وما كتب عليها توصل إلى العَلَم اليوم، وتظهر المراحل التي مر بها هذا العلم، حتى أصبح على شكله الحالي محدداً فيه كل شيء، اللون، والمقاسات المختلفة، ونوع الكتابة، وحجمها.

وهناك عُدَدٌ للركوب على البعير تحتاج إلى تفصيل، ومنها «الشداد»، وهناك نوع من الأشدة، وهي «الحداجة»، وهناك «الميركة»، و «البطان»، و «الحقب»، و «اللبب»، و «الرسن»، و «الخطام»، و «الخزام». وهناك: «الخرج»، و «المزودة»، والحديث عن كل ذلك يأخذ صفحات ربما كانت مملة، ولهذا فضلت تجنب الحديث عن كل ذلك.

الهِدَّارة والسِّرو:

الهدارة، انتفاخ يشبه «البالون» يخرجه الجمل، وقت هيجانه، أحمر قانياً، وهو منظر حرصنا على التجمع للنظر إليه. وهو مما يلفت النظر فعلاً، وكنا نعجب من أين تأتي هذه «الهدارة»، وأين تذهب عندما «يشفطها» (يمتصها).

أما «السراوة» جمع «سرو»، وهو دود إذا نخر الجمل خرج من أنفه، وهو بطول الإصبع الصغير أبيض، وكنا ننظر إلى الجمل، وهو ينخر فينثر منه واحدة أو أكثر، ولا ندري ما كنه الأمر، وكان يقال لنا إن هناك كيساً في أعلى خيشوم الجمل، وإنه إذا تحركت واحدة من هذا الدود أجبرت الجمل على هذه النخرة. ويقال كذلك أن الجنون الذي يصيب

الإبل هو منها، لأن الدودة بدلاً من أن تخرج تصعد إلى دماغه، فتخبله!!

من أنواع الإبل:

ـ الأحرش: هذا عيب من عيوب الإبل، وهو أن يكون البعير أحرش، أي يرمي يده رمياً عندما يسير، يرفعها قليلاً، وعند إنزالها يوحي بأنه سوف يضرب بها بقوة، ولكنه ينزلها بهدوء، وهذه الحركة تعيق سيره، وتجعله غير منتظم، وغير مريح. ولعل هذا العيب بسبب خلل في الأعصاب التي في هذه اليد بالذات. ولا أدري هل هو مولود بهذا العيب، أو أنه طارئ لسبب من الأسباب.

* ومن أنواع الإبل:

ـ الهِرْش: وهو البعير الذي وصل إلى سن المشيب، وهو بيّن لأن منظره يدل على أنه كبير السن، وهذا يوحي بأنه قرب الاستغناء عنه، ولحمه حينئذ غير مقبول، ويحتاج إلى مضاعفة الطبخ. وأمور السن تحتاج إلى خبير ليتكلم عنها، لأن صبياً مثلي في تلك السن لا يحيط إلا بأبسط الظواهر، أو يخطف ما يقال من أفواه المتحدثين.

من أمراض الإبل:

الإبل مثل أي حيوان لها أمراضها الخاصة بها، وهي عالم قائم بذاته في زمان عزها.

والأمراض التي تصيب الإبل تقلق أهلها كثيراً، خاصة إذا كان المرض معدياً، فهو قد يقضي على ثروة

حيوانية كاملة. لهذا يبادرون عند ظهور أول علامات المرض بالعلاج. وبعض الأمراض قد تقلل من قيمة البعير، لأنها تعيقه عن أداء دوره كاملاً، أو بعضه، كأن لا يكون قابلاً لأن يركبه أحد، أو يُحمل عليه حمل.

ومن الأمراض المعروفة: «الغُدَّة» و «الأورام»، و «شرخ السنام»، و «الجَرَبْ».. وغير ذلك من الأمراض، ويُعدّ الجرب من أخطر الأمراض، لأنه معد، وشرس، ولأنه ينتشر بسرعة مزعجةٍ، وللوالد قصة مع جرب الإبل ملخصها:

سمع أن أحد الجمالين، العاملين عنده، قد أدخل بعيراً له أجرب مع إبله في المرعى، فجن جنونه، ونزل إلى السوق رأساً، يريد أن يشتري أي بعير يوصله

إلى حيث ترعى إبله، ورأى بعيراً مناسباً يدلل عليه، فزاود في ثمنه، واستمر يزاود حتى تعدى الثمنُ الحدَّ المعقول، وكان أحد أقاربه من أسرة العوهلي، والوالد خاله، واقفاً يرقب هذه المزاودة المجحفة في نظره، فاقترب من الوالد، وأخذه جانباً، وظن الوالد أن لديه شيئاً مهماً يريد أن يُسِرَّ به إليه عن البعير، وما قد يكون فيه من عيب، أو أن هناك ما يدل على أنه مسروق، وقال له:

البعير هذا لا يساوي، يا خالي، المبلغ الذي أوصلته إليه.

فحنق الوالد مما سمع، وقال له:

«الله لا يعطيني ولد مثلك ليس في قلبه مرّ».

والمرّ هي الحموضة التي تأتي في المعدة وتقضّ

مضجع صاحبها، والحالة هذه هي ما يشعر به الوالد من جراء الأخبار المرعبة التي وصلته عن المرض الذي يوشك أن ينتشر بين إبله.

فالشاب المتعجب من خاله، ومزاودته بالسعر إلى الحد الذي أخرجه من المعقول، والذي لم يصبر وجرؤ على أن يعترض على خبير في الإبل وأسعارها، وأكبر منه سناً، وله هيبة عظيمة في نفسه، جعلته يأخذ هذا الموقف الذي أخذه، وجلب له غضب خاله. هذا الشاب لا يدري ما وراء المزاودة، ولا يدري أن الوالد كان يريد أداة ركوب بأسرع ما يمكن، وبأي ثمن، لينقذ، بإذن الله، قطيعاً كاملاً، قد يكون هو كل ثروته، فما ثمن بعير، مهما علا، عند فقد كل هذا؟ ومن المؤكد أن الوالد استغرب أن يتقدم إليه شاب

غير مجرّب، ليلفت نظره.

وللإبل ألوان مختلفة، فالسود منها «مجاهيم»، و «ملح»، والبيض والشقح «مغاتير». وهناك الصفر والشعل والزرق.

حقد البعير:

من المتواتر عند الناس أن البعير حقود، وهم يأتون بقصص عن حقده يتجاوب صداها في المجتمع، وقد يكون بعضها غير مقبول بسبب المغالاة فيها. ومما يقال عن حقد البعير أنه لا ينسى الانتقام ممن يقيمه عن «ضراب» الناقة، ولا أدري لماذا يقام عن ضراب الناقة! فإذا لم يرد صاحبها لها أن تحمل فيمكنه أن «يشملها»، أي يضع عليها شمالة تحول دون التلقيح،

وفائدة الشمالة يعرفها صاحب الناقة، لأنه يشمّل ثدي الناقة لمنع حوارها أو بكرتها عن أن تُرضع.

ومن القصص التي تروى كذلك عن حقد البعير قصة كثيراً ما نسمعها نحن الصغار، وتروى بصيغ مختلفة:

قيل إن رجلاً أقام بعيراً من فوق ناقة، فحقد عليه البعير، وأضمر له الشر، وأخذ يتربص به الدوائر، ويحاول أن ينتهز فرصة الانقضاض عليه، وأخذ ثأره منه. ولا أدري لماذا لم يهاجم البعير صاحبه في ساعة الغضب، والعقل حينئذ غائب، والفحل في عنفوان هياجه!.

المهم أن صاحبه سافر عليه منفرداً، دون رفقة، ولاحظ أن نظرة الجمل إليه تحمل شرّاً، فاحتاط لنفسه

من ذلك. وكان من عادته إذا نام توسد يد بعيره، حتى لا يسرق، ففعل ذلك في أول الليل، ولكنه سرعان ما غافل البعير، وأبدل رأسه بحجر وضعه على يد البعير، مبقياً الفراش في مكانه (الغريب أن البعير كان في غفلة عن كل هذا!!)، ثم أبعد نفسه عن الفراش وجعل يراقب ما سوف يحدث، ليتأكد أن ظنه كان في محله، أو أنه تخيل، مجرد تخيّل، إضمار البعير الشر له.

وفي منتصف الليل قام الجمل، وأخذ يطحن الحجر والفراش «بثفنة» صدره، حتى ظن أنه قد قضى على الرجل. وكان الرجل في مأمن منه، فلما رأى أن البعير أبدى رضاه بما فعله، وشفى غيظه من صاحبه، الذي أصبح الآن عجينة، ضحك ضحكة عالية،، ليلفت نظر البعير إلى أن جهده قد ضاع هباءًا، وأنه مايزال

حيّاً، وأن خطة البعير قد خابت. فلما أدرك البعير ذلك مات من شدة القهر، ولا أدري لماذا لم يسأل أحد منا لماذا لم ينتظر البعير صاحبه إلى أن ينزل من مأمنه، لأنه لن يجلس هناك إلى الأبد، والبعير أصبر على الجوع والعطش من الرجل.

هذه القصة، على كل حال، طريفة، وتصلح لنا نحن الصغار، لأنه لا يأتي في بالنا أن نناقش المنطق فيما نسمع مما هو غير مستقيم، ولعل عدم المنطق فيها هو ما يحببنا إليها، ويعجبنا بها، ويجعلنا نتطلع إلى أمثالها، وإلا فأين المنطق في قصة «أم العنزين»، أو في قصة «خضير هج إثمك وأطيح به»! ومن أراد أن يرى المزيد من هذه القصص فعليه بما دونه أستاذنا عبدالكريم الجهيمان فقد قام بعمل مجيد في هذا الصدد

لم يُسبق إليه ـ جزاه الله خيراً.

وهناك قصة عن بعير هائج، وهي أقرب إلى الواقع من الأولى. يقال إن رجلاً هاج بعيره عليه، وهجم عليه، فهرب الرجل، وتدارك نفسه بأن دخل في غار أسفل جبل، فتبعه البعير، مصمماً على أن يقضي عليه، فأدخل رأسه خلفه، ومد رقبته، إلى أقصى ما يستطيع. فأبعد الرجل إلى أقصى مكان في الغار، ولم يبق بينه وبين مشافر البعير إلا مقدار أصبع، مما جعل الرجل يقترب من درجة اليأس، ولابد أنه في اللحظة التي ضاقت عليه الدنيا فيها دعا ربه، فاستجاب له، لأنه في تلك اللحظة خرج صل من جانب من الغار، لعل صوت البعير، ومنظره أثاره، فأمسك بمشفر البعير، وعضه، وحقنه بسمه، فارتد البعير إلى الخلف، وأخذ

يخور خواراً مخيفاً، ثم سقط ميتاً، والصل الذي نعرفه في نجد، يأخذ لون المحيط الذي يعيش فيه، وهو أسود يميل إلى الزرقة، ليس طويلاً ولكنه متين، ولدغته مميتة، نسأل الله السلامة.

وهذه قصة أخرى جميلة طريفة ممتعة عن بعير وصاحبه وهي تأخذ منحى آخر وفيها جوانب من تصرف الإنسان والحيوان، وفيها فكر وعقل، وسبق أن قصصتها في كتابي «أي بني»، في إحدى محاولات الإحماض. وقد حدثني بها خال أخي محمد، وهو عبدالله السليمان المزيد العمرو، وهو رجل مرح، كان يقابل صلف الدنيا بابتسامة وتعليق مبهج ـ رحمه الله ـ وكان إضاءة مشعة لمن حوله.

وملخص القصة كما يأتي: سافر جماعة في شدة

برد الشتاء وكانوا يسرون في الليل، ومعهم زميل لهم يشرب الدخان، وكان يزعج صاحب «المعاميل» وهو الرجل المختص بحمل أدوات الطبخ وعمل القهوة والشاهي. ومعه في العادة الزند الذي تورى به النار. وكان هذا المدخن، كلما أراد أن يدخن سيجارة، والقوم مجهدون في مسراهم، اقترب من صاحب المعاميل، وقال له: «إقدح» أي اقدح الزند، أي أشعله. فيضطر هذا المسكين إلى أن يخرج يديه الدافئتين، في هذا البرد، و «يولع» له سيجارته. فشكا صاحب المعاميل إلى بقية الركب ما يعانيه من هذا المدخن، فقال له أحدهم:

سوف أكفيك شره، فإذا أقمنا غداً في «المضحى» فسوف يذهب بعض القوم للرِيَّة، وجلب الماء فاعرض

على صاحبك المدخن أن يأخذ بعيرك ويسقي عليه، ويريح بعيره.

ففعل الرجل ما أشار به عليه الحكيم.

فلما أبعد القوم قام هذا لتنفيذ خطة في ذهنه سوف تريح صاحب المعاميل من مضايقات المدخن، فعقل أرجل بعير المدخن الأربع، وأخفى وجهه، حتى لا يعرفه البعير. وصار يأتيه من خلفه فجأة فيضربه بعصا غليظة ضربة مؤلمة، ومع الضربة يقول: «إقدح». وصار يكرر ذلك، حتى ألهب ظهر البعير بالسياط من الضرب. فلما قارب مجيء القوم، ومعهم صاحب البعير، فك عقاله، وتظاهر وكأن شيئاً لم يحدث.

فلما سروا، على عادتهم، بالليل، وشعر المدخن بخرمة الدخان، اقترب من صاحب «المعاميل»، كما هي عادته، وقال «إقدح» فجفل البعير، وبرطع، ورفع يديه إلى أعلى، ورمى صاحبه من على ظهره، وأفلت البعير، فلما ردوه، واستوى صاحبه على ظهره، بعد أن روعه البعير بما جاء منه، زادت الخرمة إلى التدخين، فاقترب من صاحب المعاميل، وبمجرد أن قال: «إقدح»، برطع البعير، وأعاد ما فعله في المرة الأولى، فلما تكرر هذا منه، ومن البعير، قال له أحد الجماعة:

من المؤكد أن بعيرك لم يعد يطيق رائحة الدخان، والأفضل لك وله أن تترك التدخين إلى أن تنزل من على ظهره، وتبعد عنه، وتستقر في «المضحى». وبهذا لطف الله بصاحب المعاميل.

حداء الإبل:

الحداء هو مناداة الإبل، وهي عادة تعرف صوت صاحبها، وحداؤه لها يأتي بنغمة لا تتغير، وهي تأنس بالصوت وبالنغمة. فهي تأتي مختارة طائعة على الصوت، وهي تعرف أنه لا يناديها إلا لهدف، وأحد المواقف التي يستعمل فيها الحداء هو عندما يحين وقت انصراف الإبل المنتشرة في المرعى مثلاً إلى معاطنها، وحينئذ يناديها الراعي، فتتجمع على صوته، وتتجه إلى حيث هو راكباً على إحدى النياق. وأحياناً وهي تسير في الليل يحدو لها الراعي بين وقت وآخر لئلا يشذ منها شيء.

وعن الحداء أذكر منظراً شاهدته كان من أجمل المناظر في الصحراء، والقلم يعجز عن وصفه:

كان الملك خالد ـ رحمه الله ـ يحب الإبل كثيراً، وفي إحدى السنوات ذهب إلى البر، وخيّم في الصمان، ودعا الشيخ زايد بن سلطان ـ رحمه الله ـ لزيارته هناك، و«حَمَى» روضة يقال لها: «روضة بلال»، (ولتسميتها قصة)، وقبل مجيء سمو الشيخ زايد بيوم ذهب الملك خالد ـ رحمه الله ـ ونحن في معيته، ليطمئن على حال الروضة. فلما أقبلنا عليها اضطررنا أن نُظلِّل أعيننا من «النوّار» (انعكاس الشمس على الزهر)، وكانت الأرض لا ترى من زهر الإقحوان الأبيض والأصفر، منظماً تنظيماً إلهيّاً يخلب اللب.

وكانوا قد نصبوا صواوين على طرف مختار، وعندما وصل سمو الشيخ زايد ـ رحمه الله ـ وتناولنا الغداء، وجلسنا في شراع كبير أعد لهذه الجلسة، أمر

الملك خالد ـ رحمه الله ـ رجلاً يقال له «بداح» خبيراً بالإبل، يعرفها وتعرفه، وهو رجل متقدم في السن، طويل محترم، أن «يدوهي» للإبل، فبدأ الحداء، والإبل في الضفة القصوى من الروضة، فأقبلت الإبل قطعاناً، كأنها جيش مرسل، كل قطيع له لون: المجاهيم، والمغاتير، وقليل من الشعل، والصفر، والزرق، منظر لا يُنسى، ومن الصعب أن يتكرر، وأخذ يحدو لها بصوت جميل عال، وهي تدور معه، وتدوس هذه الزهور جيئة وذهاباً، منظر جميل، وإن كان على حساب تلك الزهور الجميلة.

روضة بلال:

يقال إن بلالاً الذي سميت الروضة باسمه مملوك لأحد شيوخ القبائل في تلك الجهات، وأنه في سنة من

السنوات جاءهم «دهر» (قحط)، وأجدبت الأرض، فطلب سيد بلال منه أن يذهب بالإبل، التي يملكها سيده إلى هذه الروضة، وليتمكن من رعي ما بقي فيها برفق حتى لا يجهد ما بها من نبت قليل، وزيادة في توفير النبت، وتوفير الحليب، عليه أن يذبح حيرانها إذا ولدت، ولكن بلالاً، لم يفعل ما أمره به سيده، ولعله أخذ بمبدأ يرى الحاضر ما لا يرى الغائب، وأبقى على كل حوار يولد، وبنى «حظاراً» (حوطة) على جانب من الروضة، وصار يضع كل مولود فيه. فلما جاء موسم الأمطار في السنة الجديدة، توفرت الأعشاب في كل مكان فساق بلال الإبل إلى حيث يقيم حي سيده. فلما رأوا الإبل مقبلة والحيران بجانب أمهاتها ظنوهم غزواً، واستعدوا لهم فلما تبين الأمر، وعرف السيد

ما قام به مملوكه من اجتهاد ناجح، قدّره، وكافأه بأن أعتقه.

هذه هي الرواية التي سمعناها اليوم من بادية نجد، ولكن المطلعين على تاريخ المنطقة وما جاورها في عهد الأمويين والعباسيين، يقولون إن بلالاً المقصود هنا هو بلال بن أبي بردة، حاكم البصرة من قبل الخليفة، وكان وُكل إليه العناية بالطرق في تلك المنطقة، وهي طرق تخدم الحجاج القادمين من العراق، والعائدين إليه.

هذه لمحة من ذكرياتي عن الإبل، وهي لمحة سريعة ومحدودة عن حيوان أحببته وما أزال أحبه، وله منزلة في نفوسنا؛ وكان جزءًا مهمّاً في حياتنا في يوم من الأيام، مثل السيارة. كان يأخذ حيزاً من العناية، وتؤخذ منه فائدة كاملة، واليوم يأخذ جزءًا كبيراً من عاطفتنا،

ويحتل حيزاً فسيحاً من قلوبنا. وما قلته عنه هو أقل مما يستحقه.

أشعر بسعادة لإقبال الناس في السنوات الأخيرة على الإبل وتربيتهم لها، والإكثار منها، وتكثير أنواعها الأصيلة. وقد توفرت الأعلاف التي تُطمئن مالكيها إذا تأخر المطر، أو قلَّ الربيع، فأصبحوا لا يخشون تأثرها، ولا تأثر سوقها. والأصيل منها، فحلاً أو ناقة، سعره محفوظ من النزول أو الركود أو الكساد. وهذا أمر يبهج، ونرجو أن يستمر أمر الإبل في السير، من حسن إلى أحسن.

وفي ختام الحديث عن البعير أعرض قصة طريفة في هذا الموضوع:

فقد رغب أحد أقاربنا أن يراني ليوصيني على شيء، فذهبت إلى دكانه في الصباح فقال لي:

إنه سيأتي إلى بيتنا جمّال معه حطب، وطلبت من الأهل أن يقدموا له تمراً وماءًا بعد أن يدخل الحطب إلى البيت.

وقال لي كذلك: دعه يأكل من التمر ما يشاء، ولكن لا تدعه يأخذ شيئاً منه معه.

وجاء الجمَّال في عصر ذلك اليوم ومعه حمل الحطب، فأدخله إلى البيت، ووضعه في المكان المخصص، وقدمت له التمر والماء. وعادة أمثاله من العاملين أن يلبس ثوباً «مروداناً» أي ذا أكمام واسعة في أطرافه، أوسع من أكمام الجبّة، وهو يرفعها ويلقيها على كتفه

عند العمل، وكان الرجل يلبس ثوباً منها.

أكل الجمَّال من التمر ثلاثاً ثم وضع الباقي في «ردنه» ولم أنطق ببنت شفه، لقد خجلت من أن أمنع رجلاً في سن والدي من أخذ التمر، حتى وإن كان هناك تعليمات. ولم أجسر أن أقول للجمَّال أني موصى بذلك. فلما قابلت صاحب البيت في اليوم التالي عاتبني على تفريطي فقلت له:

لو كنت في مكاني هل كنت تمنعه؟

فقال: «الله يهديك بَسّ».

هذا الجمّال المسكين خرج من أهله فجر ذلك اليوم، ومعه أدوات الحطب، وشقي في قطعه وجمعه وحمله، وأهله في انتظاره، وانتظار ما يأتي به لهم، فلا

أقل من أن يدخل عليهم وبيده شيء يؤكل ليفرحهم به، ولو أنه أكله كله في بيت الرجل، أكان يُمنع؟ فهو وأهله سواء، ولكن الكرم طبع!.

القمح:

عندما أتكلم عن أمر عام مثل الإبل أو البقر، فليست هي المقصودة لذاتها، وإنما لما يتعلق بها من أحداث هي ذكريات حياتي. وليس المقصود بالحديث عن القمح التعريف به، ولكن لما يتضمّنه هذا الحديث من حوادث حدثت في صغري، أو سمعت عنها حينئذ، ولها صلة بالقمح.

وتأتي صلتي بالقمح من عدة طرق، فالقمح يكاد يدخل في كل وجبة رئيسة نأكلها، فهو عماد

«القرصان» و «المطازيز» و «المرقوق» و «الجريش» و «الخبز» و «الكليجا» و «الحنيني». وبهذا يتبين مدى دخوله في حياتنا من أوسع الأبواب.

ولكن الجانب الذي يتصل بي ويتصل بأغلب الشباب في زمني فيه العبث والاعتداء، وفيه الذكريات الطريفة.

في الطريق لبيت أهلي القواضَى، عندما يتعذر المرور من «المجرَى» لوجود مياه المطر به، نسلك عادة الطريق الذي يمكن وصفه بالزراعي، لأنه يحف إحدى المزارع، بعد أن نتعدى حائط عباس المعروف، فإذا كان الوقت وقت نضوج سنابل القمح رفع الإغراء رأسه في قطف واحدة على الأقل، و «تنقيمها»، أي استخراج الحب منها حبة

حبة وأكلها، وذلك باستعمال شوكة نخلة[1]، أو بإزالة القشر باليد، وهذا إذا لم ننتظر إلى أن نشويها، وهو الأفضل والأطعم والأسهل للأكل.

ويتنازعنا في هذا الموقف أمران، وكل أمر يقدم حجته أمامه، وفيها من القوة ما فيها:

الأمر الأول: لذة «الصرم» أي سرقة السنابل، ولذة الشقاوة في هذا العمل، وليس حقنا أقل من حق العصافير.

والأمر الثاني: الشعور بالخطأ، وجسامة الإثم، وتأنيب الضمير، والخوف من صاحب المزرعة، ومن عقاب أهلنا.

---

(١) وأكل حبها قبل أن تشوى منهي عنه، لأنه يضرّ بالمعدة، لكن الشهية أقوى من تجنب الضرر.

ولكن وهذه الأفكار تتصارع في أذهاننا، ويلكم أحدها الآخر، أو يأخذ بتلابيبه، تكون أيدينا قد حسمت الأمر، وسبقت إلى السنبلة الجميلة، التي كانت تنادينا بتمايلها المغري «وتطاوحها» يميناً وشمالاً، مقتربة مرة من أختها، ومبتعدة عنها مرة أخرى، فتتجاوب، مع هذا الإغراء الفاتن، شهية متقدة الأوار، و «عفرتة» قد خلا لها الجو.

إن مدّ أيدينا إلى السنبلة ما هو إلا استجابة لترحيب حار من السنابل بقاطفيها، ويتبع هذا شيّ السنبلة مثل شيّ «ذرة الحبش» اليوم. ولو كان للسنبلة لسان لقالت أن «صرم» الصغار لي، وأكلهم لي قبل الشيّ وبعده، أرأف مما يعمل بي عادة من حصد وتجفيف، ثم دوس بأظلاف البقر، ثم عزلي وحرماني من قشري

(ردائي)، ثم طحني، ثم طبخي وأكلي!.

وشيّ السنابل ليس أمراً معضلاً، يكفي له قليل من «القشاش» (القش)، وأهداب الشجر، أو عويدات دقيقة تجمع من هنا وهناك، ونحن نسير، وليس هناك من عناء إلا إيجاد عود الكبريت، واللذة الحقيقية، المتناهية المتعة تكون عندما يُهدى لنا «عكيصة» (باقة) سنابل، تشوى في البيت أو في الحقل، لا تأنيب ضمير فيها، ولا ارتعاد فرائص، ولا مشقة في إيجاد الكبريت.

ومن أنواع القمح التي كنت أعرفها أو أسمع عنها «اللقيمي»، وهو المفضل، وثمنه أغلى من غيره، وتهدى عكائصه. وهو المفضل لوجبة الجريش على ما أذكر. ويخلط مع الذرة للعصيدة، وهناك «المعيّة»، وهي أفضل للمطازيز والقرصان، واسمها الشايع في

الرياض «الصماء»، و «الحنطة» لخبز التنور، وهناك «الجريبا». وأذكر أنها في ذلك الزمن قليلة، ولكنها مفضّلة عندنا، نحن الصغار، لعل ذلك لأنها ليس لها «سفا»، والسفا مثل الدبابيس تأتي في أعلى «كوز» القمح. ولعل الله أوجدها لتقلل من هجوم العصافير على القمح. وما أكثر ما تأتي العصافير إلى حقول القمح وقت نضج سنابله، وهو الوقت الذي نسمع فيه فرقعة «المقلاع».

والمقلاع حبل من الصوف في منتصفه قطعة تسمى «القبة»، وهي في الغالب من مادة الصوف، مغزولة ضمن حبل المقلاع، وهي جزء منه، ولكنها عريضة لتكفي الحجر الذي يوضع عادة في داخلها، ثم يثنى الحبل، ويمسك بطرفيه، و «يطوّح» به في

الهواء عدة مرات، ثم يطلق أحد طرفيه بطريقة فنية، فينطلق الحجر، محدثاً صوتاً يخاف منه العصفور. وقد استفاد منه أبناء فلسطين في انتفاضة الحجارة، واشتهر بسببهم.

وأحياناً لا يضع الفلاح فيه حجراً، لئلا يصيب أحداً، ويستغنى بالفرقعة. واستعمال المقلاع يحتاج إلى تمرين في أول الأمر، ثم يؤدي استعماله، وتكرار ذلك إلى مزيد من الاتقان، وإصابة الهدف. وفي الغالب يستخدم المقلاع لحراسة الزرع قبل حصاده، وقد يستعمل في حراسة الجرين، والجرين في (الصفا) في (الضبط) معروف ومكانه مشهور، مع أن كل مكان يوضع فيه القمح «ليدرس» يسمى جرينا، واسم الجرين ليس وقفا على الصفا في الضبط.

والجرين هذا أرض صخرية متساوية ومنبسطة، على حافة «المجرى» بينه والمقبرة، يجمع فيه القمح، ويؤتى بأبقار، أو حمير، تدوس الحب بأقدامها، وخلفها رجل معه محفر، أشبه بالزنبيل (الزبيل) يتلقى فيه ما قد ترميه البقرة، وقت ما تشاء، ووعاء لا يخر منه الماء أيضاً. ويحرص رجل على حمله خلف الدابة، وعمل هذا الرجل الرئيس حث الدابة على الدوران، وعدم التوقف، وهي مربوطة بحبل مشدود إلى حجر زاوية كبير في وسط الدائرة.

وعندما ينتصف النهار، وتزيد حرارة الشمس تراح الدابة، ويلجأ الرجال إلى «معشش» مقام على حافة الصفا: أربعة أعمدة من الخشب، غالباً ما يكون «نبعا» أي من أخشاب النخيل «لثخانته»، وقلة سعره، أو

يُغَطَّى أعلاه بسعف النخل، وجوانبه مفتوحة يطرقها الهواء، فتصبح «فردوس الأعرابي»!!.

وقد تطورت زراعة القمح، وأدخلت أنواع جديدة، وشجعت الدولة على زراعتها، وأعطت عليها إعانات، وتستلم الصوامع الحكومية كميات منها، وأبرز الأنواع الجديدة هي:

١) القمح الصلب: Hard Wheat

وهو أفضل الأنواع لإنتاج مختلف أنواع الدقيق ومشتقاته، وما يحتاج إليه مثل النخالة و «جنين» القمح، ومنه نوع منخفض «البروتين» ينتج منه دقيق الكعك، والبسكوت، والمرغوب منه صنفان:

أ - يكورا روجو

ب ـ ويست برد

٢) القمح الناعم: Soft Wheat

وهو أفضل الأنواع في إنتاج الكعك والبسكوت، لارتفاع نسبة النَّشا فيه، وانخفاض نسبة «البروتين»، ومنه صنفان:

أ ـ بنواوا

ب ـ إدوال

٣) قمح الديورم: Durum

ويبدو أنه قمح «اللقيمي». وينتج منه «السميد» المستخدم في صناعة المكرونة، وبعض أنواع الحلوى. ويُعد أنسب أنواع القمح للجريش والهريس، ومن أصنافه:

أ ـ شام (١)

ب ـ يا قارُس: ٧٩

وصرم «السبل» (السنابل) ليس هو الأمر الوحيد الذي يقدم عليه «العفاريت» من الصبيان، ولكنهم يذهبون إلى ما هو أشد وأنكى، وألذ وأغنى، وأكبر حجماً، وأكثر مخاطرة. إنهم يعمدون إلى سرقة «الجراوة» (جمع جرو) الخربز. يتسللون في القيلولة في غفلة من المزارع، فيأخذون ما يستطيعون أخذه مما نضج، فإذا شعر بهم طاردهم، فإن أدركهم أخذ ما معهم، وأدّبهم، وإن لم يدركهم نجوا بغنيمتهم الحرام.

حدث مرة أن مجموعة من الأولاد أغاروا على مزرعة في القيلولة، ومعهم ابن أحد أرحامنا، وكان قد نهب جروا «فاصِخاً» أي ناضجاً أكثر من اللازم،

حتى أن ما بداخله أصبح ماءً، فشعر بهم المزارع، وجرى خلفهم، وصادف أن قريبنا هذا قفز من فوق جدار قصير محيط بالمزرعة، فسقط «الجرو» على رأسه، وانفلق الجرو، وخر محتواه على رأسه، وكان المزارع قد ضربه وهو يتسلق الجدار، فظن الشاب أن ما انصب من ماء الجرو هو في الحقيقة دماغه، فقعد مكانه ينتحب، ويبكي بمرارة، فأدركه المزارع وضربه ضرباً مبرحاً يشفي غليله.

ومن نشاط الأولاد في القيلولة «الطبوب بالقلبان» أو «التطبب بالقلبان» جمع قليب، وهي البئر. وفي نجد يقولون «يجمح» في البئر، أي يقفز، وفي الحجاز يقولون «يطبّح». يبدأ الشباب بتعلم السباحة في «المغارن»، ويقابلها في مكة «المصافي»، ثم بعد أن

يقطعوا شوطاً في تعلم السباحة، يبدؤون في النزول في الآبار، غالباً بعد أن «تُوضع» السواني، أي يقف متح الماء، وتراح الدواب. وبعض المزارعين يطردونهم، لأنهم يضيعون عليهم الماء في البركة، ونزولهم للبئر يعرضهم للموت أو الإصابة المعوقة، مما يعرض المزارع للمساءلة وربما الإدانة، ودفع الديّة أو الأرش، وطردهم وعدم الترحيب بهم قد يعفيهم من اللوم. هذا بالإضافة إلى الضوضاء التي يحدثونها في وقت القيلولة، واستراحة الناس.

ومن عادة الأولاد أن يخاطروا في نزول الآبار، فلا ينزلون بعقل إلى الماء بالحبال، فهذا فعل غير الشجاع، والشجاع ينزل على الأقل من «الجوبة»، وهي شفة البئر، وينبه مَنْ تحته في الماء في البئر، ليبتعد عن الوسط

حتى ينزل هو «مركازاً»، ويكون الماء الفوار الذي أحدثه نزوله رفيعاً، فإن «طشطش» أي نزل نزولاً غير فني، نزولاً على وجهه، فعليه أن يتسلق إلى أعلى، ويعيد الكرّة، حتى يتقن «الطبوب» النزول، وإذا أراد القفز فعليه أن ينبه من في البئر بقوله «الماء»، ومن في الماء يرد عليه، ويطمئنه أنه عرف أنه سوف يقفز، وأنه ابتعد عن الوسط، فيقول بصوت عال: «هُولِك». وبعضهم يقول: «هونك».

وأشجع الشجعان من ينزل من «الزرنوق»، وهو أعلى مكان في أعلى عدة السواني. وأشجع من الشجعان من «يطب» (يطبح) من نخلة عيدانة، نمت ملاصقة للبئر، وتعدت في طولها الزرنوق.

وقد حدث عندما بدأت وزارة المعارف تستعين

بأساتذة من إخواننا المصريين، أن أحدهم تعين في عنيزة، واقترب من قلوب طلابه، واقتربوا من قلبه، وفي يوم من الأيام ذهب المدرس وطلابه إلى إحدى المزارع، ورأى مايقوم به الطلاب من مخاطرة في نزوهم إلى البئر، واستغرب ذلك، وذكرهم بالأخطار التي قد يتعرضون لها بسبب هذه المجازفة. فما كان من الأخ الحبيب أبي يوسف إبراهيم المحمد القاضي، إلا أن صعد إلى نخلة طويلة بجانب البئر، وقفز قفزة فنية إلى البئر، فأمسك المدرّس نَفَسَه، ودعا الله أن يخرج سالماً، وخرج أبو يوسف سالماً. والنزول إلى البئر عند القفز يقتضي الشخص أن يبرز قدمه اليمني ثم يقفز.

النقد والعملة:

العملة تتداول في يد الناس طوال الوقت، وهي العامل الاقتصادي الذي يدخل حياة الغني والفقير، ولم تكن في زمننا عملة محلية، بل كانت عملة أجنبية، وفي الوقت الذي كنت فيه في عنيزة كانت العملة بقايا عملة الدولة العثمانية.

لم نكن ـ نحن الأطفال ـ في تلك الأيام نرى الذهب عملة، إلا نادراً، وسماعنا عنه أكثر، وعملة الذهب كانت تسمى «نيرة» ولعلها تحريف «ليرة»، وربما كانت الليرة في ذلك الزمن، في بعض البلدان، ذهباً. وكان المتداول من عملة الذهب نوعين: نوعاً تركياً يسمى «عصمّلي»، كلمة أتت من النسبة إلى «عثمان». وانجليزي، ويعبر عنه بالإنجليزي، أو أبو حصان.

وكان التعامل في نجد، قبل عهد الملك عبدالعزيز بهذين النوعين من الذهب، وبالريال الفرنسي، وهو في الحقيقة نمساوي، وليس فرنسياً، وضُرب في عهد الملكة «ماري تريزا»، ويصرف بأربعة وعشرين «قطعة» نحاسية، وهي من ضرب القسطنطينية، وتصرف القطعة إلى نصفي قطعة. وبقي الأمر مدة إلى أن ضُرب الريال السعودي والقرش السعودي والهللة.

وقد رأيت في كلمة ظهرت في صحيفة، الجزيرة، العدد (١٥٨١)، الأحد ٢٥/ ٤/ ١٤٢٥هـ عن فضائل الرقيب عبدالمحسن بن إبراهيم المحيسن ـ رحمه الله ـ أن والده ـ رحمه الله ـ كان أول من بدّل الريال السعودي بمنطقة نجد، وسحب الريال الفرنسي من الأسواق، ودعا الناس إلى قبوله، وشجعهم على ذلك، بأن بادلهم

الريال بالذهب. وقد اختاره الملك عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ لإبدال العملة، وقام بذلك عام ١٣٥٥هـ.

وأذكر أن الناس في عنيزة لم يَقبلوا الريال السعودي بسهولة، وقاوموه، لأنه أصغر من الريال الفرنسي، ولأن كثيراً من الوصايا والصُّبَر (الحكر) بالريال الفرنسي، ولأن الصاغة شككوا في مقدار الفضة فيه. وبقيت الثقة بالفرنسي مدة غير قصيرة، إلى أن أصبح لا يُرى إلا في معامل الصاغة. وعلمتُ أنه لايزال متداولاً في اليمن، وقبل خمسة عشر عاماً أرسل لي شخص ثلاثين ريالاً في صُرَّة، ذكر أن والده أوصاه بتسليمها لي بعد أن عرف أني ابن عبدالله العلي الخويطر، وكانت الوصية هذه لابنه عند وفاة الرجل. وكانت موضوعة في قطعة قماش قديمة، وذكر ابن الرجل أن والده كان

اقترضها من والدي ـ رحمه الله ـ وقيمة ما خصَّني منها ثمين، لأنه أثريّ، و يحمل ذكرى قديمة.

والريال السعودي، بعد ضربه وإنزاله للأسواق، لم يكن مقبولاً، أو دارجاً في أيدي الناس، لعدم ثقتهم فيه في نجد، ولكني عندما جئت لمكة لم أر غيره ولم يكن فيها للريال ماري تريزا أثر، وذلك في أول محرم عام ١٣٥٧هـ. ولعل السبب أن الأمور في الحجاز كانت منظّمة أكثر منها في نجد، والناس في الحجاز معتادون على العملات وتباينها، وأقيامها، وقوتها وضعفها، لأن أنواعاً منها كثيرة، تكاد لا تُحصى مفرداتها، تأتي مع الحجاج، وكل نقد يأتي مع الحاج مقبول. والتجار كذلك في الحجاز أقرب إلى معرفة التجارة وأمورها، وأمور الصرف، والربح الذي يمكن أن يأتي من

تداول العملة، وتبادلها، مع اعتيادهم كذلك على تبديل العملة كلما اعتلى عرش السلطنة العثمانية سلطان جديد. وقد كان هناك عملة اسمها «المجيدي»، ومن المؤكد أنها ضربت في عهد السلطان «عبدالمجيد»، وبقيت تتداول إلى أن نسخها ما جاء بعدها في عهد تالٍ لعهد السلطان عبدالمجيد. ثم توارت هذه العملات العثمانية، بعد سقوط الدولة العثمانية، في معامل الصاغة، وسبكت في بعض الحُلي.

وفي الحجاز شيوخ للمهن في المدن الكبرى، وهم مسؤولون عن تنفيد التعليمات التي تصدرها الدولة، ويتابعون تنفيذها، ولابد أنهم قاموا بواجبهم تجاه تعميم الريال السعودي وإحلاله محل «ماري تريزا» مما جعله يسود في وقت أقصر مما احتاجه في نجد.

وكان الريال السعودي في أول ضرب له كبيراً نوعاً ما، ولعل ذلك جاء حرصاً من المسؤولين على نجاحه في مزاحمة الريال الفرنسي «ماري تريزا»، إلا أن حجمه في ضربٍ تالٍ أصغر. والعملة تحته كانت عشرين قرشاً ونصف قرش (هللتين) وهللة.

صناعات محلية:

كان كثير مما يستعمل من الأواني والأثاث، ومواد البناء، والزراعة، مما يدخل فيه الطين والخشب والحديد والوبر والصوف، صناعات محلية، وكان القليل من هذه الأشياء يستورد، ويكاد المستورد ينحصر في الملابس، ما عدا الملابس التي كانت تحاك من الصوف لأغراض محددة.

المصنوعات الخشبية:

يؤخذ أكثر الخشب من النخل، ومن الأثل، وقليل منه يستورد، وكان يسمى «الساج». ومن الأخشاب تُسقف البيوت، وتُصنع الأبواب، وتصنع «صحاف الأكل و «المواقع» و «المغارف» و «المعاصد» جمع معصاد. وتعمل من الخشب «الأشدّة» جمع شداد، و «الكُتبان» جمع كَتَب، و «المحّال» جمع «محّالة» و «الدرّاج» جمع درّاجة، ويقوم بعملها النجارون، وكل مدينة بها نجاروها الذين يرثون الصنعة في الغالب من أحد أفراد أسرهم ممن هم أكبر وأقدم في العمل.

المصنوعات المعدنية:

لا أدري من أين تأتي خامة الحديد، ولكن المصنوعات

المعدنية كانت مزدهرة، وسوق الصناعين رائج رابح، وهم يعملون في المقام الأول القدور، والحجري (نوع من القدور)، والسكاكين، وصحون الحديد، و «المس» (الملاس) و «الطياس» (جمع طاسة) ومسامير الأبواب، والمحّال للآبار (جمع محّالة)، وحذاء الخيل، والسيوف، وصقلها.

وفيما يأتي قصة تروى عن الصناع، وتمثل ظلم المهنيين للزبائن، ولجوء بعضهم إلي الغش.

جاءت امرأة إلى أحد الصناع، واتفقت معه على صنع قدر أو ربِّهِ، ولم يأت العمل على الوجه المطلوب، وأبدت اعتراضها عليه للصانع؛ وليوقف اعتراضها، والدخول في جدل معها، عمد إلى الدعاء ظاهراً على نفسه، وفي الحقيقة أن الدعاء اقتصر عليها، قال لها:

«إن كانت أنت ظلمتيني ياخذ عنك أويلادك.
وإن كان أنا ظالمك. انفخ يا صبي انفخ».

وهكذا دعا عليها، ولما جاء دور الدعاء على نفسه التفت إلى العامل عنده، وأمره أن ينفخ الكير، وهكذا دعا عليها، وتفادى الدعاء على نفسه بهذه الحيلة، وقد أصبح هذا الذي جرى على لسانه مثلاً.

صناعات أخرى:

كل ما في النخلة يدخل في صناعة من الصناعات، والخوص من أبرزها، تصنع منه «الخصاصيف» جمع «خصاف»، وهي الحصر، وهذه الحصر يُجلس عليها، ويُصلى عليها. ومن الخوص تعمل قلال التمر، والزنابيل، وتوضع على الأسقف قبل أن يوضع اللبن

والطين عليها، ومن الليف تُبرم الحبال.

وأغلب من يقوم بسف (نسج) الخصف هم النساء، وهن بارعات في هذا، ومع التمارين يزيد الاتقان، وتزيد السرعة، وهناك «مداد» كانت تأتي من شرق الجزيرة، وقد تكون من الأحساء، وخوصها خاص، أقرب إلى شكل الأنابيب الرفيعة، وتُعد من فرش الأرض الراقي، ولا يقدر على اقتنائها إلا الأغنياء.

صناعة الجلود:

صناعة الجلود من الصناعات المزدهرة، وأبرز من يقوم بالعمل فيها الخرازون، وعملهم الرئيس صناعة الأحذية، وصناعة الخروج والمزاود (جمع خرج ومزودة)

والنطوع، وهي جلود تدبغ، وتصنع بطريقة خاصة مع زخرفة و «دناديش» يجلس عليها بعض الناس ضيوفهم إكراماً لهم، ويوضع عليها الطفل، وتوضع على شداد البعير ليجلس عليها الراكب «النازك». وأغلب الصناعات هذه من جلود الضأن، أما جلد البعير فله صناعات جلدية أخرى معينة، لمتانته وقوته، فمنه «مواطئ» الحذاء والزرابيل، ومنه سرح السواني (جمع سريح). ويدخل الجلد في صناعة سرج الخيل، وأرسنتها، وأرسنة الجمال، وتصنع من جلد البعير الدلاء و «الغروب» (جمع غرب).

أصحاب المهن:

كانت مدينة عنيزة في وقت صباي مزدهرة

بالصناعات الوطنية، وعمل أهل الحرف المختلفة متكاملاً، ولعل الإقبال على الحرف المختلفة كان بسبب أمن الطرق، واستتباب الحياة الطبعية، فلا حروب، ولا تجنيد، ولا أسوار، وتبادلت المدن ما لديها من إبداع في بعض الصناعات، وكان في عنيزة عدد من الصاغة، والصنّاع، والخرازين، والدباغين، ومن «يسف» الحصر، ويطوي الآبار، ويحفرها، ومن ينسج السياح والسجاد، ويشيد المباني، ويفلح المزارع، وهناك الدلالون، وأصحاب الدكاكين، والحطابون، والحشاشون جمع حاش (أي جامع العشب)، والحمالون، وغير هؤلاء مما يجعل البلدة مدينة متكاملة المرافق، تخدم نفسها، وما حولها من القرى.

نساء فاضلات:

عُرفت في الأسر أو في الأرحام نساء فاضلات سمعت بعض القصص الطريفة عنهن، وما سوف أقصه عن واحدة منهن سمعته منها، في شفافية متناهية، لم تتردد في أن تتكلم عن بعض المواقف الطريفة، وأغلبها حدثت لها في صغرها.

عندما عرفت هذه السيدة كانت في سن جدتي ـ رحمها الله ـ وهي امرأة مرحة وصريحة، وذات عقل يلمس المرء أنه متقدم، وكانت صغيرة السن عندما زوجوها لأول مرة، ولها عمة كبيرة السن، سمينة الجسم، ولعلها «كريمة العين»، وأرادت هذه العمة بعد أن تعشت عصراً وجبة جريش أكثرت منها، أن تسبح «تأخذ دشّاً»، وقد شعرت بثقل من الوجبة.

وكبيرات السن لعدم وصولهن إلى «القرو» الأعلى، وهو خزان ماء صغير عال بعض الشيء وبما يزيد قليلاً عن طول الإنسان، تتم استعانتهن لملئه من البئر بإحدى صغيرات السن، وإن لم يكن في البيت أحد استعين بابنة أحد الجيران.

قالت السيدة لابنة أخيها:

املئي لي «القرو» الأعلى لأسبح (أتروّش).

فملأته هذه الشابة. وكان جدار المسبح يغطي مَنْ خلفه إلى الرقبة، ويبقى الوجه يُرى لمن في الخارج.

أثار الماء البارد في يوم صيف روح الطرب في العمة، فأخذت ترقص في المسبح، تحت «الدش» وتغني وتقول:

من مـــلاه ابتـــلاه يبزي نصفه عن ملاه

أي من ملأ بطنه صار بلاءً عليه، ويبزي (يكفي) «يجزي» مَلْأُ نصف البطن عن ملئه كله.

تقول قريبتنا الحبيبة، تأكدت أن عمتي قد لبسها جنيّ، فارتعبت، وبدون تفكير أو تبصر انطلقت جرياً إلى الشارع، أركض بثياب البيت، ليس عليّ عباءه، وليس على وجهي غطاء. ودخلت على بيت أهلي وأنا بهذه الحالة المزرية، وقلت لهم:

عمتي انهبلت، داخلها جنيّ، وها هي ترقص في المسبح.

فأسرع أهلها إلى حيث كانت عمتها تسبح، ووجدوها قد أنهت سباحتها، وقصوا عليها القصة،

فضحكت وقالت:

إذاً أنا أرعبت ابنة أخي، لها الحق أن ترتعب.

وضحك الجميع، وبقي أمر «من ملاه ابتلاه» حديث الأسرة حتى وصل إلينا بعد ما يقرب من نصف قرن.

أم القبيس:

صاحبة القصة السابقة قصّت علينا قصة لا تقل طرافة عن السابقة، قالت:

زوجت وأنا صغيرة، وسكنت مع زوجي وحدنا في بيت، وكان يذهب في بعض الليالي ويسمر عند أصحابه في قهوة بيته، وعندما يقترب وقت مجيئه ألبس ثوب «كيناوي» (صيني منسوج من الحرير)،

وهذا النوع يأتي بألوان مختلفة، أشهرها الأحمر أو الأخضر أو الأصفر أو الأزرق. وصادف أن ما لبسته في تلك الليلة كان أحمر اللون. ومن عادة الحرير إذا مر بالشعر يخرج منه، من جراء الاحتكاك، شرر، وهو شرر متواصل مدة الاحتكاك. فارتعبت من ذلك، وخلعت الثوب ـ رحمها الله ـ ولم يكن على جسمها غيره، ورمته في البئر، وبقيت عارية في ركن مظلم بجانب الدرج في ردهة البيت.

جاء الزوج وطرق الباب حتى يئس، فطرق باب جيرانه، وأخبرهم أنه طرق باب بيته، فلم تفتح زوجته، ولعل النعاس قد غلبها، ورجاهم أن يسمحوا له أن يدخل ويقفز من سطحهم إلى سطح بيته، فسمحوا له، وقفز، وأخذ ينادي زوجته الصبية، وهو ينزل

الدرج، فلما قرب منها قالت له:

أنا هنا في هذا الركن، وأنا عارية. ائت لي بثوب، فقد رميت ثوبي الكناوي (الشيناوي) في القليب، لأني وجدت فيه أم القبيس.

وسمّتها بهذا الاسم لأن الضوء قبس منها ولمع عندما احتك الثوب الحرير بشعر رأسها، وهي تظن أن أم القبيس هذه من الجن. فاستجاب الزوج ـ رحمه الله ـ وكان زوجاً رحيماً عطوفاً، وأقلع بعد هذه الليلة عن السهر خارج البيت، وتقول ـ رحمها الله ـ أن ماء البئر بقي أياماً وهو أحمر اللون.

وقد توفي زوجها الطيب هذا، وخطبها زوج جديد، ولاستقلالها بالرأي، ومحبة والدها لها، قدّر طلبها

عندما اشترطت أن ترى الزوج الذي خطبها. ولم يكن هناك وسيلة لرؤيته إلا خلسة دون علم أحد، فقال لها والدها:

إن الرجل الخطيب يجلس عصر كل يوم في دكان فلان، فاذهبي، وانظري إليه.

ففعلت دون علم الخطيب. ولما عاد والدها للبيت بعد صلاة المغرب سألها عن رأيها في الخطيب. قالت:

«لا أريده، فأقدامه كبيرة».

فقال لها: الخير فيما اختاره الله، والنزول من أسفل الدرج أسهل من النزول من أعلاه.

ونزل على رأيها ـ رحمها الله رحمة واسعة، ورحم والدها ـ الذي لم يرد أن يجبرها على زوج رأت فيه

عيباً، وأب آخر قد لا يرى هذا عيباً يوجب رفض الخاطب. أما والدها فحكَّم العقل، وراعى مصلحة ابنته، وأبعد عن نفسه ما قد تأتي به الأيام من ملامة، فرأى بذلك أن موافقته على رأيها هو الصواب.

وقد تزوجت هذه السيدة فيما بعد، وجاءها من زواجها ابن ـ أمد الله عمره ـ يقوم بعمل مهم ومفيد، وهو في موقع متقدم، وكانت ترعاه، ولا تجعله يغيب عن عينها. وهو صاحب نكتة، وسرعة بديهة، وقالت له يوماً:

«أخشى أنك تدخِّن».

قال لها: «جعل الله الدخان يخرج من أنفي إن كنت أدخِّن».

ودون أن تفكر في هذه الجملة قالت: اسم الله عليك، بل دخّن، ولا يجعله الله يخرج من أنفك.

لم تفطن ـ رحمها الله ـ إلى أن المدخن لابد أن يخرج الدخان من أنفه.

وكانت هذه امرأة حكيمة جربت الحياة وعركتها، ولها إبنة أخت عزيزة عليها، تقيم عندها في كثير من الأحيان، ولزوج ابنة الأخت هذه زوج ثانية، ويميل إليها كثيراً، ولها ابنة من زوج سابق، فسمعت الزوج الأولى، ولها ابن بالغ حديثاً، أن والده سوف يزوجه ابنة زوجه الثانية. وأبدت لخالتها خوفها من أن يكون هذا الهاجس حقيقة، وقالت:

«أخشى أن أصحو في يوم من الأيام، فأجد أن الابنة

استولت على ابني مثلما استولت أمها على أبيه».

فأرادت الخالة أن تبعد مخاوفها عنها، وأن تقضي على هذا الهاجس الذي يؤرقها، وأحبت أن تملأ قلبها بالطمأنينة، فقالت لها:

«تحزنون أو لا تحزنون على شيء يكون أو لا يكون». وتقصد بهذه الجملة أنه لا داعي للهم على أمر لم يقع، فقد لا يقع منه ما يوجب الهم والقلق.

ولعل هذه الحكمة مستقاة من قول الإمام الشافعي رضي الله عنه:

سهرت أعين ونامت عيون

لامور تكون أو لا تكون

إن ربّاً كفاك ما كان بالأمس

سيكفيك في غد ما يكون

وكانت هذه الزوج الأولى تسكن مع أولادها في مكة وسكنت الزوج الثانية في نجد، وبعد أشهر جاء نبأ ينعي البنيّة. وكان الزوج ـ رحمه الله ـ قد طلب من أحد أقاربه أن يأخذ ابنه إلى إمام الحرم الشيخ عبدالظاهر أبو السمح، ومعه وكالة بأن يزوج الابن بابنة الزوج الثانية. وتمت المِلْكَة، وبقي الأمر سرّاً، حتى بعد أن توفيت البنيّة ومرت الأيام، ولم يفصح الابن عن القصة إلا بعد أن أصبح جميع المشاركين تحت الثرى ـ رحمهم الله جميعاً.

هذه السيدة لا تكاد تنتهي طرائفها، ولها ذاكرة قوية، وهي لا تنسى ما يمر بها من طرائف، وهي

شجاعة لا تخفي ما يعده غيرها خطأ يجب أن يستر، وهذه شفافية متناهية منها. ومن تلك الطرائف ما روته عن نفسها بنفسها، قالت

كنت ذات ليلة على سطح بيتنا مع أمي وحدنا، ولم يكن عندنا سراج نستضيء بنوره، وكان وجه أمي تجاه الدرجة التي تصعد من المصباح إلى السطح، وظهري إليها، قالت أمي:

«بسم الله الرحمن الرحيم».

فقفزت إلى حجر أمي، وحضنتها بقوة، فقالت لي:

ماذا جرى لك؟ ما بك؟

قلت لها: إنك لم تقولي «بسم الله الرحمن الرحيم» إلا لأنك رأيتِ جنيّاً يصعد الدرج، أو رأيت رأسه

على الأقل مطلاً من الدرج.

ومن طرائفها أن ابن بنت أختها مرض، واستدعوا له طبيباً، وكانوا في مكة، فلما جاء الطبيب ليعطيه إبره، دواءً لمرضه، فأبى أن يأخذها، وأصر على الرفض، فقالت ـ رحمها الله ـ:

لا يجوز أن يعود الطبيب خائباً، وتضيع الإبرة، دعوه يضربني بها.

قال لها من حولها: إنك بخير وعافية، ولا تحتاجينها.

قالت: زيادة العافية عافية.

قالوا: إنها لتخفيف الحرارة، وأنت ليس عندك حرارة.

قالت: هذا أحسن، فحرارة الطقس اليوم على أشدها، ولم تقتنع إلا بعد لأي، وأظن أن هذا لم يكن جهلاً منها، ولكنها أمّلت أن يكون في التظاهر بأخذها ما يقنع ابن العائلة، الذي لم يقتنع بهذا، وعاد الطبيب والتمرجي يجران أذيال الخيبة.

ومن طرائفها التي لا أنساها أن رب الأسرة كان له بيتان، وكان ابن الزوج الأولى قد أزعج والدته في ظهر يوم من الأيام، فقالت أمه لأخيه الأكبر:

إذهب إلى الشارع بعد أذان العصر، وقف في طريق والدك، وهو ذاهب للعمل كالمعتاد، وأخبره بأفعال أخيك المزعجة. وقل له: إننا عجزنا عن أن نجعله ينصاع لما يطلب منه من هدوء.

ظن الصغير أن هذا مجرد تخويف، وأنه تهديد لا يعدو طرف اللسان، واستمر في غيّه من تجميع «المخدات» والفرش وعمل صرح عال، والطلوع إلى أعلاه، ثم القفز، وهكذا. وقد تكون الأم قصدت التخويف فعلاً، ولكن الأخ الأكبر أخذ الأمر جداً.

بعد صلاة العصر وقف الأخ الأكبر لأبيه، وأوقف سيارته، وأخبره بوصية أمه. ومن عادة الوالد أن يدلل ابنه الصغير عندما يناديه، فيقول له: يا شيخ فلان، أو الشيخ فلان، عند ما يشير إليه في حديثه. فجاء الوالد إلى البيت متوقعاً أن يكون هناك موقف طريف مع ابنه الصغير. أخذ، وهو يصعد الدرج، ينادي ابنه المناداة المعتادة: يا شيخ فلان:

فلما سمع الابن صوت أبيه أدرك أن الأمر جد،

وأن الفأس توشك أن تضرب الرأس، بحث عن مفر فلم يجد لأن مخرج «المجلس» في اتجاه والده. وكانت خالة والدته قد دخلت في صلاة العصر، وعادة النساء في تلك الأيام أن يتحللن من ثيابهن، ويلبسن ثوباً واحداً واسعاً مكمماً خاصاً بالصلاة، ولا شيء غيره، إلا «الغدفة» التي تغطي الرأس والشعر. وهذا التحوط خوفاً من أن تكون الثياب المعتادة جاءها أثناء النهار ما يلمس طهارتها من بول طفل أو غيره.

ولمّا سدت الأبواب أمام الابن الصغير رأى أن خير ملجأ هو أن يدخل تحت ثوب خالة أمه، بين الثوب والجسد، فانطلق كالإشعاع، واندسّ في ذلك الحرز المكين، وكانت واقفه فقعدت وقد غلبها الضحك وقطعت صلاتها. فلما رأت والدته ما حدث سارعت

إلى إيقاف الوالد عن إنجاز المهمة، وقد غلبها الضحك من المنظر وقالت للوالد:

ارجع الآن، وسأشرح لك الأمر في الليل عندما تأتي.

وشرحت له ـ رحمه الله ـ الموقف، وكانت هذه القصة حديث الأسرة في تلك الأيام.

وهذه السيدة صاحبة القصة السابقة التي حدثت لها تنتمي لأسرة كريمة، فيها من صفاء النيّة وحسن القصد وحب الناس ما جعل أفرادها مضرب المثل في هذه الأمور عند أهل عنيزة.

وهناك قصص أخرى ترويها هذه السيدة نقلاً عن بعض أفراد أسرتها.

متداوٍ ـ سلّمك الله ـ:

مما يذكر عن طيب هذه الأسرة الكريمة، وعفويتهم وعدم تكلفهم فيما يأتون، أن أحد أفراد الأسرة كان يسكن بجوار المسجد، ملاصقاً له، وكان جدار سطح البيت مشتركاً مع جدار المسجد، وهو جدار يعلو الرأس قليلاً.

وفي ليلة من ليالي الصيف، وكانت عادة الناس النوم على سطوح المنازل، أقلقه ألم في عينيه، وأطار منهما النوم، فوضعت زوجه في عينيه دواءً معروفاً، ومخصصاً للعيون، أيّاً كانت إصابتها! ويحتوي هذا الدواء على شيء يسمى: «صَبَّاً»، ومعه قليل من «البقَّم»، والبقم هذا له لون وردي، ولونه يبقى أياماً حول العينين وبعض الوجه، وهو مؤلم، وقد زاد هذا الدواء من

سهر الرجل في تلك الليلة وقلقه إلى ما يقارب أذان الفجر، وهو لا يستطيع أن يذهب إلى المسجد وهو بهذه الحالة، وإن لم يذهب تعرض للجزاء، لأن المؤذن بعد الصلاة يعد المصلين «يتفقّدهم» واحداً واحداً، فإذا افتقده فإن له الحق أن يشهّر به في اليوم التالي في وسط السوق بأن يأخذ غترته (غطاء الرأس)، وهذا معيب له، ومزر بسمعته، لأن الألسن سوف تتناقل ذلك، وهذا ليس في صالحه، ولا في صالح أسرته.

وبعد تفكير طويل، وتشاور مع الزوجة الكريمة قرر أن ينتظر بجوار جدار البيت الملاصق لجدار المسجد، فإذا ورد اسمه يقول «حاضر» كأنه فعلاً حاضر، والوقت ظلام، ولا سراج هناك، وقربه من آخر الصف سوف يوهم من في المسجد أنه داخل

المسجد، ولن يتنبه أحد للحقيقة.

وبدأ عد الحاضرين من الجماعة، وكالمعتاد يكون العدّ بترتيب البيوت، حتى لا يُنسى أحد فلا يعد، أو يعد أحد مرتين، فلما وصلوا إلى بيت الرجل، ونادوا اسمه فبدلاً من أن يقول «حاضر» كما كان مقرراً قال:

متداوي ـ سلّمك الله.

فضجّ المسجد بالضحك، وانكشف المستور، ولكن عذره قُبل، واستُبعد بتاتاً النظر إلى الأمر على أنه حيلة، فالرجل مؤتمن، و «البقم» شهادة ناطقة عن حال العينين، وبهذا سلمت «الغترة»، ومر الأمر بسلام.

صَوَى وعَوَى:

ومما ترويه هذه السيدة عن أسرتها قولها:

كان أحد رجال هذه الأسرة وزوجه وابنه البالغ مبلغ الرجال، قد «بطّخوا» (زرعوا)، في سنة من السنوات، أرضاً. وكالمعتاد كان عندهم حيوانات للسواني، ولعملها في السواني يشد على ظهرها «كتبان» (جمع كتب)، ينطلق منها «الرشاء» و«السريح»، وسيلتا متح الماء. والكتب مثل السرج للحصان، أو الشداد للبعير، و «توسر» (تشد) أجزاؤها «بقدٍّ» وهو من جلد البعير، ولقوته يحرص على استعماله في «الكتبان» لتتحمل العمل الشاق، ولكن هناك آفة يسلطها الله على «القدِّ»، وهي الكلاب، تأتي الكلاب «الهمل» (السائبة) على أطراف المدن في الخرائب والأثول. وكان الوالد

قد استعد لها ببندق رش جاهزة معمّرة، فإذا أحس بها، وسمع حركتها قرب الكتبان، أطلق عليها النار، وتصوي من جراء «الصتم» الذي أصابها، وتبتعد ومعها صوتها الذي يتلاشى تدريجاً، وهو دليل على أنها ابتعدت.

وفي ليلة من الليالي، وقبل أذان الفجر، شعر الرجل أنه أخذ كفايته من النوم، وأراد أن يستفيد من وقت يقظته، فراح يهيء للسواني بتقريب الكتبان من حظيرة الحيوانات، أو من «المنحاة». فلفتت حركته نظر ابنه، وظن أن هناك كلباً من تلك الكلاب، فصوّب (بندقه) تجاه مصدر الحركة، وأطلق النار تجاه الصوت بعناية فائقة، واستغرب الابن أن الكلب، خلافاً للمعتاد، لم يصوِ، فظن أنه أخطأ الرمية، فالتفت إلى أمه، وقال لها:

«عجباً إنه لم يَصْو».

فرد الأب الذي أَصابته الرمية:

«بل صويت وعويت و «امّهنَّ خيّري»!.

امرأة خيّرة ورجل سيّئ:

وروت السيدة الكريمة قريبتنا كذلك رواية أخرى عن إحدى نساء هذه الأسرة الكريمة، التي يذهب أفراد منها في الشتاء إلى خارج المدينة لجلب بعض العشب من إحدى الرياض القريبة، قالت:

ذهبت والدة الأسرة إلى البر في آخر الليل، ومعها حمارها، لحش بعض العُشب من هناك، وبدأت عملها، ولاحظت أن هناك رجلاً «يباريها» (يمشي موازياً لها) منحنياً ومحاولاً التخفي خلف «عثامير» (شجيرات

صغيرة) منتظمة في صف، فاستمرت هي في عملها، وبيدها «مخلبها» الذي تحش به، وكلما خطت خطوة خطا مثلها محاذياً لها، بحذر لئلا تراه، وهو لا يدري أنها رأته، وأنه مثلما خطط لها هي كذلك أعدت خطة له في ذهنها، وأعدت نفسها لها.

هؤلاء النسوة أجسامهن قوية من العمل المضني الذي يقمن به، فأيديهن لا تفتر من العمل، وأكتافهن لا تستريح من الحمل، وأرجلهن في سير دائم، وظهورهن في انحناء مستمر. هذا يجعلهن في مثل قوة الرجال، بل يزدن أحياناً على الرجال، فالفلاحات والبدويات يمكنهن أن يوازين في سلامة الجسم وقوته رجلين أو ثلاثة من رجال الديرة الذين لا يزاولون عملاً جسمياً يذكر.

عند آخر «عثمور» من صف العثامير، والمتوقع هنا أن يتواجها، ويتبين المتخفي، فاجأت هذه السيدة الرجل سيء النيّة، ووضعت المخلب على حلقه، بعد أن طوقته بيدها خلف رقبته، وطرحته أرضاً وكتّفته وأكملت عملها، فلما انتهت، ووضعت الحصيلة من العشب في «المنثر»، وهو قماش من صوف خشن يحمل فيه النبات وأمثاله من العلف، وضعت الرجل موثقاً وسط الحشيش، البارد الرطب في المنثر، ووضعته على ظهر الحمار، وعادت سيراً على الأقدام إلى بيتها، ورمت حملها خلف الباب وقالت لزوجها وابنها:

«إن عندنا ضيف في المنثر خلف الباب، وسط الحشيش».

وظنوا أنها صادت طائراً تائهاً أو أرنباً. فلما قصّت

عليهم القصة سارعوا إلى إخراج الرجل وتدفئته لكي لا يموت من البرد، وكانوا قد وجدوه في آخر رمق.

ولادة على طرف الحوض:

وقصّت قريبتي كذلك القصة التالية:

كانت السيدة التي تحدثنا عنها في القصة السابقة في مقتبل العمر، وكالمعتاد لمن هو مثلها في محيطها، كانت تذهب وتعمل في الحقول، وكانت حاملاً في شهرها الأخير، وذهبت «ترؤس» في أحد الحقول، و «الرياسة» هي تصريف الماء، الذي يأتي مع «الساقي» من البركة، إلى أحد الأحواض، فإذا امتلأ أقرب حوض سدت «المعدل» (المخرج) من الساقي إليه، وانتقلت إلى ما بعده، مع تعشيب ما يحتاج إلى تعشيب،

وتنظيف الحوض من الشوائب، وهكذا تفعل بالثاني ما فعلته بالأول. فجاءها المخاض وهي «تروس»، فولدت مولودها، وسرّته، ومهدته، ووضعته قريباً منها، ثم أكملت عملها، وعادت بابنها إلى بيتها تحمله، مستقبلة بفرحة من أهلها وفخر.

وبالتأكيد فإن العمل الشاق، الذي كانت تقوم به النساء جعل ولادتهن يسيرة، ونادراً ما تعسر ولادة المرأة في ذلك الوقت. وينصح الأطباء عندما يطول وقت «الطلق» بأن تمشي المرأة حتى تجهد. وأذكر في سنة من السنوات، وإحدى بناتي ولدت في مستشفى الجامعة الأمريكية في بيروت في لبنان، كان هناك امرأة ألمانية أخذ «طلقها» مدة طويلة، فنصحها الطبيب أمامي ومعها زوجها بأن يذهبا إلى «الكورنيش»، ويمشيا، فذهبا،

ومشيا ساعات حتى اشتد المخاض عليها، فرجعا إلى المستشفى، وولدت المرأة ولادة ميسرة.

امرأة أخرى خيّرة:

هذه المرأة التي سوف تروي قريبتنا قصتها، هي من أسرة أخرى كريمة تمت إلى قريبتنا بصلة رحم، وقصتها تظهر طيب النفوس، وعمق التسامح، والبُعد عن التكلف والتعقيد، وهذه الصفات من سمات ذلك الزمن وأهله، والقصة طريفة حملت قريبتنا على الإعجاب لطرافتها.

وتفصيل القصة أن هذه السيدة اشتهرت بحلاوة لسانها وبسماحة نفسها، وعُرف عنها حبها للناس وعطفها على الحيوان، وكان من «اللوازم» التي على

لسانها دائماً جملة: «يا خلف أبوي»، أي أن المخاطب في مكان والدها الذي فقدته، وهو دعاء يأتي بعد عمل قام به تجاهها أحد، أو مقدمة لطلب منها لأحد تريد أن يقدم لها معروفاً، كأن تقول لأحد: «ارفع هذا الحمل على رأسي، يا خلف أبوي».

وكانت هذه الجملة تسرّ أمير عنيزة حينئذ عندما تقولها له. فكانت تقول له أحياناً: «كيف حالك، يا خلف أبوي». إلى أن جاء يوم من الأيام، وكانت تسير معه، فرأت حماراً مربوطاً، وكان صاحبه قد ربطه في مكان فيه ظل آنذاك، أما الآن فقد وصلته الشمس، وآلم هذا صاحبتنا الطيبة، الحنون على الإنسان والحيوان، فالتفتت إلى الحمار، وخاطبته قائلة:

«يا خلف أبوي تركوك في الشمس».

فقال لها الأمير: «أفا، يا أم فلان، أنا والحمار كلانا خلف أبوك».

ولم يعد بعد ذلك يفرح بهذه الجملة منها، وصار كلما سمع هذه الجملة انتصبت أمامه صورة الحمار في الشمس.

«ويا خلف أبوي» جملة تقال لتعطي القول ابتسامة مثل ما نردف نحن اليوم قولنا بجملة ـ سلّمك الله ـ أو أطال الله عمرك، أو حفظك الله.

الجـراد:

اخترت أن أتكلم عن الجراد، لأنه داخل في ذلك الزمن في حياة الناس بعمق، فإذا جاء تحركت البلاد كلها ما بين مرحب لأن له منه فائدة، وفلاح متذمّر لأن

عليه منه ضرراً. وعندما يهجم على البلاد ينبه من يراه الناس عندما تظهر بوادره وطوالعه، إن كان «دباً» أو «خيفاناً» أو «مكناً»[1]. والدبا هو صغار الجراد التي لا تطير، ولكنها تدب وتقفز بسرعة. وقد رأيتها تأتي كأنها سيل جارف.

عندما يُرى الجراد، أول ما يرى، يسرع رائيه إلى البلد، وينادي في الناس، ويدور في الأسواق، ومن سمعه سارع في النداء حتى لم يبق أحد إلا ويعرف عنه، والمنادي يقول: «يا جرادوه، الجراد في المكان الفلاني»، فيسرع كثير من الناس، وكل واحد منهم معه ما يستطيع أن يجمع به جراداً، وما يستطيع حمله، منهم من معه «كيس خيش» أو قدر، أو أي وعاء،

(١) تقسيم الجراد : دبا ثم خيفان . ثم المكن للأنثى والزعيري للذي لونه أصفر.

أو ثوب، ولاشك أن صاحب الحظ الأوفى هو من يجد كيس خيش، يحشو فيه ما يتمكن من جمعه، وما أسهل ذلك، خاصة في الليل. ويمكن جمعه في النهار، ولكن لسرعة طيرانه، وقفزه، لا يكون من السهل جمعه. أما صيد الليل فهو الذي عليه المعول للاقتناء البيتي، وللبيع.

والجراد في الليل يكون «لابداً» على الأشجار القصيرة، مكان غذائه المفضّل، فيأتي الشخص، ويفتح فم الكيس، ويدفع فيه مما على الأرض، ويدفع فيه ما يستطيعه، ويهز الشجيرات لتُسقط ما عليها، فإذا اكتمل في الأرض جمعه.

وهذا الجمع العشوائي، في الليالي الظلماء لا يخلو أحياناً من أخطار، لأن الجراد طعام مغر للحيات

والثعابين، فيجمع مع الجراد بعض الحيّات، ويدخلها في الكيس دون أن يعلم، وقد تلدغه، وقد لا تفعل، ولكنه عندما يُفرغ الجراد رأساً في القدر الذي به ماء يغلي، وفيه ملح، فإنها تسقط مع الجراد، ولا يُدرى عنها إلا بعد أن ينضج الجراد، ويفتح القدر.

طبخ الجراد:

ينصب فوق النار قدر فيه ماء وبه ملح، فإذا غلى الماء جيء بكيس الخيش المملوء بالجراد فأفرغ في القدر بسرعة وبحذر لكي لا يتسرب منه شيء. ثم بعد وقت ليس بالطويل يكشف غطاء القدر، ويؤتى بأداة الغَرْف الخاصة التي تأخذ الجراد، وتترك الماء، ويسميها أهل عنيزة «المس» ويسميها غيرهم «الملاّس». ويؤكل

الجراد رأساً، وهذا هو ألذ أكل له، ويسمى «نقوعه». ويجفف ما يبقى، ويوضع في أكياس يؤخذ منه قليل يوضع في الأكل ليعطيه طعماً لذيذاً. ويؤكل كذلك وهو يابس فيما بين أوقات الوجبات، وألذ أكلاته أن يؤكل مع الإقط «البقل» (المضير).

وأفضل مكان تخزن فيه الأكياس «المنفوح» (المبيت) لأن الهواء يطرقه ليل نهار من السطح، والشمس لا تصل إليه. وكنا نغزوه وقت القيلولة عندما يكون الكبار نائمين.

بعض أطوار نموه:

الخيفان هو الجراد في المرحلة التي بين عمر الدبا وعمر المكن، حيث يحمل البيض أو الزعيري. والخيفان

لا يؤكل بلذة، ولا يعرف ذَكَره من أنثاه، ولا يبيض، ولونه يميل إلى البياض، وتحفر «المِكْنَة» عادة حفرة متقنة، ثم تدخل الجزء الأسفل منها، الممتلئ بالبيض، فتفرغ بيضها في هذه الحفرة، ثم تهيل عليها التراب بطريقة متقنة. ثم بعد زمن يأتي المطر، وتبتل الأرض، ثم يخرج الدبا المفسد، فيرعى ما أمامه من خضرة، وهو العدو الأول للمزارع.

وعلاج «الدبا» متقن، فإذا عرف مكانه، واتجاه زحفه، حفر أمامه أخدود «زيبة» بعرض امتداده، فإذا وصل إليها، وسقط فيها، وتكامل، أهيل عليها التراب، ودفن في هذه الأخاديد. ويصبح بعد مدة سماداً مخصّباً للأرض.

أما الخيفان، فيكاد لا يكون له علاج في النهار

لصعوبة جمعه، وسرعة طيرانه، وتفرقه، إلا أن بعض المحدثين من المزارعين، يوقفون في آخر المزرعة في طريقه عسباناً من النخيل، فإذا أقبل أوقدوها، فيبتعد الجراد يمينا عنها ويساراً، ولكن هذا العمل ليس سهلاً، ولا هو مضمون النتيجة، لصعوبة إتقان نصب العسبان، وسرعة احتراقها، وما قد يأتي منها من أخطار الحريق. والخيفان عادة لا يؤكل، ولهذا لا يجمع ما أمكن، وإنما يحرص على إحراقه بقدر الإمكان.

و «المكن» واحدها «مكْنَة»، هي أنثى الجراد حاملة البيض. والمكن صيد ثمين، خاصة لمن أراد أن يأكله حاراً، أو لم يمض على طبخه وقت طويل. وإذا تخلصت المكنة من بيضها سميت «ماسراً»، ويمكن أن تحمل بيضاً مرة أخرى فيقال عنها كسبت.

وكنا نبدأ بزهم البيض، ذيل الجرادة، لأنه أغنى ما في المكنة، وسرعان ما يشبع الشخص لغنى «الزهم» بما يشبه الدهن، ثم بعد أن ينتهي الزهم نتنازل في رغبتنا إلى صدور الجراد، فإذا انتهى ما في الكيس منها، أكلنا الرؤوس، فإذا فرغ الكيس منها، أكلنا «القصاميل»، وهي سيقانها وأرجلها، وهي جزءان: الأفخاذ، والمناشير أو المخالب (السيقان)، وهذا هو آخر ما نتواضع فنأكله. ثم نلجأ في النهاية إلى ما تبقى في الكيس مما يشبه الدقيق، وهو خليط من كل شيء في الجراد، ويسمى «الدقوقة».

ومايزال الناس إلى اليوم يحتفلون بمجيء الجراد وصيده إذا أمكنهم ذلك، إلا أن فرحتهم تتلاشى إذا تذكروا أنه قد رُش بالسم الذي يقتله.

الهباب (الهباء):

أول ما لفت نظرنا إليه مسقط إشعاع يأتي نازلاً من كوة في جدار صفة الجصة، وهي صفة مظلمة، فإذا دخلت الشمس من الكوة، وسقط نورها، وكأنه حبل إشعاع أنزل من عدسة مركزة. نرى فيه من الألوان ما يشبه قوس قزح في تعدد ألوان حبيبات الهباء فيه. ونحاول أن نمسكها بأيدينا دون فائدة، بل إن حركة أيدينا تزيدها حركة وتخرج ما هو منها في بؤرة الضوء إلى المحيط المظلم الذي حولها. ونحن ننظر إلى حباته تموج في الفضاء حوله، تسبح ما شاءت لها الصدفة يميناً أو يساراً، ولعل هواءًا لا نشعر به هو الذي يتولى تحريكها، وتتكون منها أشكال وألوان نتخيل فيها ما يحلو لنا أن نتخيله، فهذا مطارِدٌ وذاك مطارَدٌ،

وهذا يحاول أن يسبق آخر، وآخر يعلو، وبجانبه حبة هباء تهبط، وهذه حبة تطارد أخرى، ولا ندري إلى أي نتيجة انتهت المطاردة، فقد دخلتا في الظلمة، كما يدخل القمر في الغيم، وقد تعودان ولكننا لا ندري أن هاتين هما السابقتان، فلصغرهما لا نتبين المعالم، وأحياناً ونحن نشاهد الكرّ والفرّ ننام خاصة وقت القيلولة، ونكمل ما نراه حقيقة بما يحلو لنا حلماً.

تتبع مظاهر الكون:

أمر الهباب ليس هو الأمر الوحيد الذي يجذب أنظارنا، ولكن كل مظاهر الطبيعة من حولنا تغرينا بالتأمل والمتابعة، في حدود طاقة عقولنا، وإدراكنا لبواطن الأمور وظواهرها.

كان عندنا وقت لمتابعة مظاهر الطبيعة، بما فيها الضوء، والظلمة، والحيوانات، والطيور، والحشرات بأنواعها، خاصة ما يدب منها في البيت، أو في الشارع، أو في الحقل.

وكنا نقف عند أصوات الحيوانات نحاول أن نعرف ما فيها من لغة تعتمد على النبرة، وعلى تقطيع الصوت، وطول المقطع أو قصره، وكنا نخرج ببعض ما نعتقد أننا نجحنا فيه، حتى الأوهام والخيالات، والقصص الرمزية لها نصيب من تفكيرنا وتدبرنا، وما أكثر الأوهام في تلك الأيام والخرافات والخيالات يغذيها الجهل، وحب الغرابة في الأمور، والشغف بالغموض.

أما ابن اليوم فهو بعيد كل البعد عن مثل هذه

الأمور التي تحتاج إلى أناة وطمأنينة، ووقفة تفكير وتدبر، وتبصّر بما حوله، فهو ينتظر انتهاء مذاكرته، وهو على أحر من الجمر، ليجري تجاه الآلة الالكترونية، يلعب بها، وإن أجاد هذا العمل بحث عن معلومات تفيدهُ لم يتعب عليها، بل أخذها ممن تعب عليها مثله، وممن مرّن عقله وطرق بحثه عليها، وابن اليوم يأكل الوجبة جاهزة وهو لا يدري كيف طبخت، ولا من أي مادة عملت.

ذلك زمن ولّى، وهذا زمن أطلّ، ولكل زمان أهله يتأثرون به ويتأثر بهم، والشيء الواضح عند تدبر كل من الزّمنين وأهلهما، أن الزمن الماضي فيه مجال للثبات على العادات والتقاليد، بما في ذلك اللهو البرىء، وما يشبه اللهو البرىء، وطرق اللعب وأنواعه، فلا يكاد

زمن الجَدِّ وما فيه يختلف عن زمن الحفيد وما فيه. وباختصار فهناك سعادة في هضم الطفل للنشاط أو اللعبة، والغوص على مجالات اللذة والمتعة فيها، وتبقى اللعبة عند الابن أو الابنة سنين عديدة، يحافظان عليها كأنها من لحم ودم، وقد تنتقل من جيل إلى جيل في بعض الأحيان.

أما الشباب، اليوم، فمختلفون تماماً، العادات تتغير، والتقاليد تتبدل بسرعة، أو تترك، وليس فيها إلا متعة مؤقتة، ثم يأتي الملل، ويطرق الباب مُخترَعٌ جديد، وتتلقفه الأيدي بلهفة سرعان ما تهدأ، ثم تتلاشى لتفسح المجال لما هو أحدث منها.

ابن الأمس لم يكن يحمل نقداً في جيبه، ولا يملك مالاً، وابن اليوم محفظته لا تكاد تنقص النقود التي

فيها إلا في حدود طاقة ولي أمره، هذا إذا لم يكن في جيبه بطاقة بنك أو بطاقتان، وتربية ابن الأمس سهلة، لأن والده وجدّه ومن قبلهم مروا بما يمر به، فهم يعرفون جيداً مجرى الأمور في كل سن يصل إليه الابن. وكانت الزلات محدودة، وآثارها مثلها. أما ابن اليوم فإن حَرَمْتَهُ من رغبته تعقّد، وسلك سبلاً منحرفة للحصول على ما يريد، إلا من رحم ربي، وإن أعطيته حتى لا يُذَلّ من قبل زملائه، ولكي لا يشعر بنقص عنهم، ربما سلك طرقاً غير مرحب بها، سهل أمر الدخول فيها وُجود المال، وتوفره معه، ورخص المال عند صاحبه. وهذا خلاف ما كان عليه الأمر في الماضي تماماً؛ الإنحراف في زاوية الدرجة بين الجيلين حاد جداً.

والفَتَى في وقتنا الحاضر، وهو بهذا الانشغال، لا يقف ويتدبر، فأموره تجري بسرعة فائقة، فالعلم بأنواعه يأخذه من الفضائيات، معداً جاهزاً، لا يجهد نفسه في العمل للوصول إلى النتائج، وما خلف الظواهر، هذه كلها تأتيه متكاملة، بمجرد لعب أصابعه بمفاتيح الآلة المعدة لهذا. وسرعة توالي أخبار التطور في حقل ما لا تجعل هناك لذة للهضم والمتعة.

أما في زمننا الماضي فالأمر مختلف، هناك أناة، وهناك هضم فيه لذة، وبعض الأمور لا يصل الصغير فيها إلى كنهها إلا بالاستقراء والتجربة. ولكل شيء حولنا من مظاهر الطبيعة وقته، فبعضها وقته الليل، وبعضها وقته النهار. والنهار كذلك مقسّم إلى أوقات، وإلى أماكن، فما تُتابَع فيه التجربة في البيت غير ما يُتابَع

ويستقرأ في الشارع أو في الحقل أو في البر، وفي كل هذا متعة ولذة يبقى طعمهما في الذاكرة إلى اليوم.

القيلولة والتدبّر:

القيلولة تلعب في حياة الصغار دوراً رئيساً، يفوق أي وقت آخر من الليل أو النهار، ففيها غياب الكبار عن الصغار، وعن مراقبة حركاتهم: افعل هذا ولا تفعل ذاك، هذا حرام، وهذا مضر، وهذا فيه أجر لأن فيه تضحية، وهذا فيه نفع لأن فيه خدمة للآخرين، والقيلولة حين تكون الشمس في أشد حرارتها، تلجئ الصغار إلى البقاء في البيت مجتمعين، أو في ظل إحدى القبب، وفي التجمع فيهما البهجة وتدبير الخطط.

ولكن في القيلولة في الوقت نفسه وقت للهدوء

والتأمل، ومتابعة ظواهر الطبيعة، وبعضها جذاب ومغر، وتلجأ الحشرات الطائرة في العادة إلى الظل والمكان المنعش بجوه البارد ومن هذه الحشرات:

الذبة (الزنبور) :

وهي من الحشرات الطائرة التي تغري الصغار بمتابعة نشاطها، فهم يراقبونها وهي تبني عشها قطعة قطعة من الطين الليّن، تبني قليلاً بما أحضرته، ثم تذهب وتأتي بقطعة أخرى مبللة، تبني فوق ما بنته، والصغار ينتظرون إلى أن تعود، ولا يملون، لأنهم يضيفون إلى معلوماتهم معلومات، ويتعجبون من مقدرة هذه الحشرة على إتقان عملها، ومع أن أحداً لم يعلمها، وإنما هي فطرتها التي زرعها الله فيها دلّتها على هذا العمل المتقن، الذي فيه بقاء جنسها، وسعادتها.

والذّبّة تختار المكان الذي يصلح أساساً لبيتها، ثم تبدأ بناء البيت بطريقة هندسية لعلها أوحت للإنسان ببعض أوعيته، وهي تضع البيت على جدار، أو على باب، ثم بعد أن يصل البيت إلى مستوى قررته تقفل أعلاه بما يشبه فم «القُلّة» (الشربه)، وقبل أن تقفله تضع فيه وريقات من الشجر، ثم تضع معها بيضها، وتقفل فم البيت، وبعد حين يخرج الصغار عندما يفقسون من البيض، ويطيرون، ويبدؤون حياة جديدة مثل حياة أمهم. هذا يعني أن بناء البيت هو لأجل البيض، أما الأم والأب فلا ندري أين يقيمان، ولو كان بحثنا وتدبرنا مبنياً على خطة «أكاديمية» لعرفنا ما لم نعرفه آنذاك.

على كل حال فإننا سرعان ما ننقلب من معجبين

ومندهشين، إلى مخربين قساة قلوب، نعمد إلى هذا البيت بعد مدة فنكسره قبل أوان خروج الصغار منه، فنجدها بحالة مزرية مقززة، ومع هذا فلا نمل من مثل هذا العمل، فنكرره. والذبّة أحياناً ومعها غيرها تبني في صف واحد عدداً من البيوت، وعند خروج الصغار منه وكسرنا ما تبقى من البيت يصبح مكانه أبيض، نتيجة ما كان فيه من مواد، أو ما تكوّن مع أبنائها من مادة.

ويعجبنا صوتها وهي مقبلة، وهو مفيد لتنبيهنا لمجيئها، فنتبعها بأعيننا ذاهبة أو آيبة، ولا أدري هل الصوت مصدره فمها أو أجنحتها. وقد يصعب علينا العبث ببيتها إذا كان مبنياً بعيداً عنا في خشب السقف، أو أعلى الحائط، ولكن «الجذمار» يسعفنا،

وكأنه شريك لنا في كثير من أمور الأذى، فعن طريقه نصل إلى غرضنا السيء، وبه نستطيع أن نخرب بيت هذه المسكينة بعد أن تعبت عليه، وبنته طينة طينة، وبعد أن تعرضت في طيرانها ووقوعها للطيور عدوتها اللدودة.

وللذبّة قرصة مؤلمة لمن يحاول أن يمسك بها، ولعل فيها بعض السم الذي يحميها من أعدائها من الحشرات، ومثل الذبّة الدبور، وهو لا يبني بيتاً وإنما يخرق بيته في أبواب الخشب الهشّ، والدبور أسود لا جمال فيه مثل الذبّة، التي تأتي ملونة بلون أصفر يخطط جسمها، ولها خصر نحيل، أما الدبور فأقرب ما يكون جسمه إلى الكرة، وكنا نظن أنه زوج الذبّة، ولكن تبين لنا بالاستقراء، وربما سمعناه من العارفين

أنه من جنس مختلف.

كل هذا البناء والنشاط يحدث أيام الصيف، وقيلولتنا هي كذلك في وقت الصيف.

النمل:

ومن الحشرات التي كنا نتابعها بدقة وحدب، ولا نمل من ذلك، أنواع النمل، فمنه الذر الصغير، ونسميه في نجد «الذر»، ومنه النمل الكبير، وهو الذي نسميه «النمل»، فإذا قيل إن بيت فلان مليء بالنمل فنعرف أن المقصود النمل الكبير وليس الذر. ومن فصيلة النمل «القعر»، والذرة قرصتها لا تؤلم كثيراً، وهي مما يوجد داخل البيوت وخارجها، وهي تصل إلى أصغر حبة طعام تقع على الأرض.

أما النمل الكبير فقرصته أشد إيلاماً، وهو يشبه الذر إلا أنه أكبر منه مرتين أو ثلاثاً، وأهل البيوت يحاربونه إذا رأوه يحاول أن يستوطن البيت، والذر والنمل يظهران في النهار. والقعر يشبه النمل الكبير كثيراً، إلا أنه يميل في جسمه إلى السواد، ويكثر ظهوره في الليل، ويبدو أنه يجنح إلى النور إذا رآه، وهو عنيد كلما أبعدته عاد إلى المكان الذي أبعد منه، ولهذا يضرب به المثل فيقال: فلان قعرة، أو فلان أَعْنَدْ من قعرة.

القعوسة :

وهناك القعوسة (جمع قعس)، وهو حشرة تشبه النملة الكبيرة في حجمها، إلا أن القعس أسود، وذيله مرفوع إلى أعلى دائماً، وعضته غير مؤلمة، ولهذا إذا

أرادوا وصف ألم خفيف يقولون: «عض قعوسة»، وهو يظهر في النهار، والأغلب أن يكون خارج البيوت، أو في المزارع، وهو محبب للصغار، ويحلو لهم أن يعبثوا به وببيته الذي يحفره بطريقة هندسية متقنة في الأرض غير الرخوة، وعبثهم به يأتي من صبهم الماء عليه، فيخرج ما في البيت هرباً منه، وتراه أحياناً ينقل بيضه.

وكانت هذه الحشرات الأرضية تأخذ وقتنا كثيراً، فنحن نراقبها مضطجعين على الأرض، بصبر وأناة، نرقبها آتية من بعيد تحمل قطعة من ورقة شجرة أكبر من حجمها، وكأنها جندي يحمل علم العرضة، أو علم الحرب، فيغلب علينا حب الأذى، ونأخذ الورقة، ونرقب الذرة، وهي تدور حول المكان

الذي أخذت منها فيه، وهي محتارة أين ذهبت الورقة، وكيف اختفت، هل وقعت، أو أن ريحاً أطاحت بها، وقد تدرك أن أحداً أخذها منها، تُرى هل تحيط بجسم المخلوق الضخم الذي أخذ الورقة بعينيها الصغيرتين، وهو بالنسبة لها كالسحابة التي سدت الأفق، وإن أدركت فما مدى حنقها وتمنيها أنها بحجم الفيل حتى تقتص ممن أخذ منها كسباً تعبت عليه، تعبت في قطعه، وتعبت في نقله، وعوقها عن الهدف الذي كانت بصدد الذهاب إليه، وإنجاز عمل كانت تنوي إتمامه، بنداء من الفطرة وبقاء النوع.

وحين نتتبع خط سير هذه الحشرات الأرضية الذي عرفناه عندما أقبلت معلنة عن نفسها بهذا العلم الذي لا يخفى على عين، ثم بعد أن نأخذ منها الورقة، ونرصد

تصرفها وحيرتها، وتصميمها على العودة، والبدء من جديد، نسبقها ونضع الورقة أمامها، ونرقب هل ستأخذها فرحة جذلة وفيها حيرة وتساؤل: ما الذي طوّح بالورقة إلى هذا المكان البعيد، أم ستترك الورقة أَنَفَة منها. وليس هناك أبدع من منظر مجموعة الذرّ تسير في صف منتظم، كل واحدة معها ورقة، فتبدو لك وكأنها صفّ من العسكر بلباس موحد، وعلم أخضر، يهتز فوق الرؤوس، أو قوارب في نهر رافعة أشرعتها.

ونحن نحذو حذو الجاحظ في الرغبة الشديدة في دراسة هذه الحشرات وحياتها، ومراقبة تصرفاتها، وعاداتها، وما تجيء به فطرتها من أمور تدهش المراقب. وكان الجاحظ يدرسها بعقل راجح ناضج، يعرف ما

يبحث عنه، ويحسن تفسير ما يراه، لا تفوته صغيرة ولا كبيرة، عميق التدبر، حاد التبصّر، يستفيد من التماثل والمقارنة، ويعرف المنتظم في عاداتها من المنقطع؛ تجاربه فيها لهدف، يصل إليه و هو لا يمل ولا يكل، ولا يستهين بأي حيوان، وقد استطاع بعد جهوده الموفقة أن يخلّف كتاباً من أثمن الكتب عن «الحيوان» حتى ليبدو وكأنه من العناية به لم يكتب غيره.

وهناك قصة عن الذرّ طريفة ومشوقة، فيها منطق ولها مغزى:

قيل إن ذرّة أقبلت ورأت في طريقها قطعة صغيرة من السكر، فدارت حولها، واقتربت وعرفتها جيداً، ثم عادت مسرعة من حيث أتت، وكان هدفها أن تحضر معها ذرّات أخريات. وكان رجل يراقبها،

وبمجرد أن أبعدت التقط حبة السكر، فلما عادت ومعها رفيقاتها لم يجدن الحبة، فعدن من حيث أتين، ثم عادت هذه الذرة وحدها وكان الرجل قد أعاد الحبة إلى مكانها، فدارت حولها مثل ما عملت في المرة الأولى، وتأكدت من وجودها، ثم ذهبت وأحضرت زميلاتها، وأخذ الرجل للمرة الثانية حبة السكر، فلما لم يجدنها قتلنها، لأنهن اعتقدن أنها كذبت عليهن في المرة الأولى والثانية، والكذب والعبث في دنيا الحيوان مرفوض.

وأنا أشك في صحة هذه القصة، والراجح عندي أنها قصة خيالية مبتدعة لم تحدث، ولكن فكرتها طريفة ربما طرأت على ذهن أديب، فصاغها بهذه الصورة التي توحي أنها معقولة في الظاهر، وقد ركّب القاص

على الذر ما هو من طبيعة الإنسان العاقل، وما وضعه من أنظمة وقوانين وأعراف لحياته، ولم يفكر كذلك فيما هو من طبيعة الحيوان وسليقته وفطرته، مما أودعه الله فيه لبقاء نوعه مؤدياً هدفه في هذه الحياة.

والشك يأتي من عدة نواح.

أولها: أن حبة السكر تكون في الغالب صغيرة، وإذا كانت كبيرة فيتوقع أن تأخذ منها في الرحلة الثانية قطعة تكون عينة لما وجدت، ودليلاً عليه.

ثانيها: أن حاسة الشم عند الذّر قوية جداً، بحيث إنه لا يسقط تمرة إلا وتجد الذر قد تجمع عليها، ولا تدري من أين جاء هذا العدد الكبير من الذرّ، لأنك لم تشاهده من قبل. وهذا يعني أن مكان حبة السكر

لن يخلو من بقايا رائحتها.

ثالثها: إن كان الذرّ يحمل عقلاً مثل عقل الإنسان كما صورته القصة، فلماذا لم يفترض أن ذرّاً آخر جاء وحمل حبة السكر، وأن من وقعت منه الأولى وقعت منه الثانية، وأن الذرّ الأول أخذ الثانية كما أخذ الأولى، أو جاء غيره وأخذها.

وقد شلّت طرافة هذه القصة، مثل كل شيء خيالي، أفكار من سمعها أو قرأها وحالت بينه وبين أن يفكر بعمق فيها، والحقيقة أن في قبول القصة لذة أكثر من لذة رفضها، وأنا أعتذر للقارئ إذا كنت أفسدت عليه لذة هذه القصة الطريفة، ولكن الذّر سوف يدعو لي لأني أبعدت عنه تهمة القتل الظالم، والذّر لا ذنوب له، وهذا أقرب للقبول!!

الـوزغ :

الوزغ واحدتها وزغة، وفي القصيم اسمه «بعرصي» وجمعه «بعارصَى» وفي بعض بلدان نجد اسمه «ظاطور» وجمعه «ظواطير»، وهو من الحشرات التي لا تغيب عن نظرنا، وتأخذ حيزاً مناسباً من تفكيرنا ونشاطنا وأذانا، والأذى من أبرز الجوانب التي تشغلنا، ونتفنن فيه حسب حالة الحيوان أو الحشرة، والوزغ نوعان:

نوع رقيق صغير يميل إلى اللون الوردي، جلده شفاف، تكاد ترى ما بداخل جسمه، يعيش في السقوف، سواء في البيوت، أو في القبب في الشوارع، أو في المعشِشات في الحقول، وأغلب خروجه في الليل، ولكنه يُرى في النهار، ولا يستغرب، وخير طعامه الحشرات، وأفضلها الطائرة مثل الذباب، والناموس،

والقبص (صغار الجراد) وأمثال ذلك. يمد، وهو يختلها، لسانه مسافة بعيدة، وفي رأس اللسان لزوجة إذا لامست الضحية لصقت فيها فيسترجع اللسان وفيه الصيد.

ويقال: إنه يأكل الطعام، ولم نره يأكله. ويحرص الناس على أن لا يتركوا الأكل مكشوفاً دون غطاء، خوفاً من «اللاحوس»؛ واللاحوس هو «البعرصي». ويعتقدون، إذا لم يجدوا غطاءً كاملاً، أن خوصة نخلة توضع على وجه الصحن تكفي لإبعاده.

ويعتقد الناس أن الوزغ سام، وأن سمه ينفث في الأكل إذا أكل منه، أو ولغ في وعائه إذا كان سائلاً، وكثيراً ما يرجع الناس وجع البطون أو الاستفراغ أو الإسهال إلى أن المصاب أكل أكلاً ملحوساً. والوزغ

مظلوم مثل ظلم الناس للعين، وإرجاع الأمور الغامضة إليها، وظلم الأطباء للحساسية، وإرجاء كل مرض لا تُعرف أسبابه إليها.

وللوزغ صوت «قوقأة» يعرف بها، ولا أدري ما المقصود بها، هل هو مناداة واحد منها للآخر، أم هي إنذار بتوقع خطر، كنه الأشياء أحياناً، وعدم تنظيم الاستقراء عندنا. ونحن صغار لم يوصلنا إلى معرفة المقصود بهذا الصوت.

والوزغ يتسلق الجدران بسهولة وسرعة مدهشة، وأحياناً يمشي على السقف، وجسمه مقلوب، وظهره تجاه الأرض، وهذه القدرة جاءته من تهيئة الله له أقداماً فيها مثل «الشفاطات» تلصقه في المكان الذي يقف عليه معتدلاً أو منكّساً.

والشائع عند الناس أن في قتله باليد أجراً، ولا أدري إن كان ورد في هذا شيء، ولكنْ قليل من الناس يقدم على مثله لما فيه من عدم النظافة، وربما بسبب ما عرف من تسميمه للطعام، ولكنه في الحقيقة مفيد للقضاء على الحشرات المؤذية للإنسان، وقد يكون بعضها لا يُرى.

وهناك نوع من الوزغ قبيح اللون، يميل إلى السواد يعيش في بيوت الخلاء، وهو محارب منا محاربة لا هوادة فيها، وهو أكبر من النوع الأول الوردي النظيف.

والوزغ يبيض عدة بيضات، ويهيئ لها مكاناً بعيداً عن متناولنا في الغالب، ويضع بيضه لاصقاً في الجدار أو الخشب، في كيس يشبه الغشاء، فإذا حان وقت تفقيسها خرج المولود، ويبقى أثر مكانها واضحاً أبيض.

وكثيراً ما نخرّب هذه البيوت غير نادمين لا نحن ولا من حولنا، فنرى السائل اللزج الذي لم ينضج بعد ليتكون منه وزغة جديدة، وللوزغ ذيل إذا قطعناه في إحدى مطارداتنا له، فإنه يبقى «يرعص» (يتحرك) وقتاً غير قصير، ولعل ذلك للفقرات التي يتكون منها.

البغبغان :

وهو نوع من هذه الحشرات الزاحفة، وهو أكبر من البعرصي حجماً، ويعيش في الخرابات، والمباني المهجورة في الحقول، وهو غير سار المنظر، وليس من النوع الذي نرتاح في النظر إليه، أو الذي نهتم بدراسة حياته، أو التمعن في حاله، أو تدبر تصرفاته.

البريصي:

من فصيلة هذه الحشرات الزاحفة، ولا يعيش إلا في البر، وهو إذا أحس بالخطر تجمع لون أخضر فوق رقبته، وخلفها على ظهره، ويقال إنه سم، وكنا نسمع عنه ونصدق ما لا نصدقه الآن، وهو أنه يسقي الحيّة سمها. وسبق أن تحدثت في رحلتين للبر مع والدي من الرضاع، عن أني صدته غير عارف لما فيه من خطر[1].

هذه الدواب الصغيرة كانت تأخذ من وقتنا في القيلولة نصيباً وافياً، وهي تستحق ذلك، ففي متابعتها متعة، ولكن يغلبها في ذهننا، وفي نشاطنا العصفور فلننتقل إليه.

---

(١) انظر: (١/ ٢٦٧).

العصافير :

العصفور طير غير أليف، ومع هذا فهو يشاطرنا البيت، يختار منه المكان الذي يشاء والذي يجد فيه الأمان، له ولبيضه ولفراخه، وصوته يطربنا، ومنظره يبهجنا، ومشيه يعجبنا، وطيرانه يشدنا.

لطيرانه بهجة، ولوقوعه مثلها، ولالتفاتته جمال، ولنقده للحب خفّة وفن. يأخذ من وقتنا في القيلولة شيئاً كثيراً، فهو مثلنا لا ينام في هذا الوقت، ولا يرتاح، تراه إما قادماً وفي فمه أكل أو ماء لفراخه، وصوته يسبقه ويلحقه.

الذَكَر من العصافير اسمه في نجد «الكحالي»، ولعل هذه التسمية جاءته من سواد في رقبته تحت

منقاره، نعده لحية له، والأنثى اسمها عندنا «الأميَّة»، عند المقارنة بين الذكر والأنثى، يبصر الدقيق النظر أن الذكر أكبر قليلاً من الأنثى.

والعصفور صديقنا على الرغم من أنه غير أليف، وعشه و هو أغلى ما عنده موجود عندنا في البيوت، ولكن لكثرته، لا تحرم البساتين منه، ولا «القلبان» (الآبار)، وأي مكان صالح للعش بعيد حسب تقدير العصفور عن الخطر، مثل «القبب» (جمع قبة) في الشوارع، والمساجد، تجد العصفور في الفجوات من هذه الأماكن، وبين اللبنات، في «فرجة» (نافذة) قد سدّت «لُطِسَت»، ولم «تليص» من الخارج، تجده في «المشاقيص» في القلبان، ومكانه المفضل بين حشب السقوف.

وعش العصفور معروف، لأنه يأوي إليه في النهار أمام الناس، فإذا وضع بيضه في عشه سمي «مفرخة»، والجمع «مفارخ» ويخبر الصغار بعضهم بعضاً بالمفارخ التي تكثر في الصيف، وهم يراقبون «المفرخة»، فإذا «صوصت» «الحوقلة» عرفوا أن البيض قد فقس، فيبدؤون يرقبون «الأمية»، وهي تأتي «تزقم» الحوقلة حبة القمح، أو يرقة فراشة، أو فراشة صغيرة، أو «نقدة» من تمرة. ونحن نرقب ونتابع بإمعان تقدم الصغير، فإذا نبت ريشه سمي «مطياراً»، وبدأ يقف في مقدمة العش، لأنه لا يصبر حتى تأتي أمه، هو بهذا مثلنا عديم الصبر، والعجلة ديدننا وديدنه.

ثم تبدأ خططنا للاستيلاء عليه، وعندنا من الحيل ما يجعل الجهد مكللاً بالنجاح. وأتصور شعور الأم عندما

تعود، ومعها رزقه، فلا تجده، وحين تراه معنا تملأ الدنيا حولها صياحاً، وتنقلاً من جهة إلى أخرى، وتقوم بكل ما يمكنها من إظهار سخطها، ولكن دون جدوى أمام قلوب لا تعرف الرحمة، وليس عندها من الإدراك ما عند الكبار، الذين يقدرون لوعة المصاب في ابنه. ومع هذا كنا نحرص ما أمكننا أن نخفي ابنها عن عينها، ولسان حالنا يقول: إذا كان شرنا أصاب العصفور فلتنل الأم خيرنا بإخفاء جريمتنا، ولكن صياح ابنها تجاوباً مع صياحها، يفضحنا، ونشعر أن الذنب ذنبه لا ذنبنا!.

وأحياناً لا ندري عن العش، ولا عن المفرخة، لأنها تكون في مكان غاب عن نظرنا، أو بعد عن متناولنا، فيطير «المطيار»، فنعثر عليه في الأرض في انتظار أمه، فنطبق عليه، وأشهد أنه يحاول جاهداً أن يفلت منا،

وقليلاً ما نجح في مجهوده هذا، وفي أكثر الأحيان تنزله أمه لأول مرة في الصباح الباكر ونحن نيام، فتجده إحدى النساء في البيت، فتبرّ به أصغر الأطفال سنّاً، وهذا من أكبر مسببات الفرح، لقد جاءت بغيتنا فجأة، وبدون تعب!.

والعصفور من أجمل الطيور مشياً، فهو «ينقز» (يقفز) قفزاً في مشيه، بطريقة رشيقة، مرفوع الرأس، ممشوق القوام، أحياناً قفزة واحدة ثم يقف، وأحياناً أكثر من قفزة، وتصل أحياناً قفزاته إلى سلسلة منها، وكأنه يسير على سلم موسيقي. ونعرف «المطيار»، الحديث الطيران، من صُفرة تبقى منذ أن كان «حوقلة»، على مؤخرتي منقاره، وصوته قبل رؤيته يدل عليه كذلك.

والعصفور يقف على الأغصان، وعلى الأعواد، وعلى الجدران، لأن أقدامه تساعده على ذلك. و «الحُبَّالات» جمع حُبَّالة (المصائد)، التي ننصبها لصيده أنواع، وفي الغالب تكون التمرة هي «الطُّعم»، لأنها أقرب إلى متناولنا، وتأتي أفضليتها عند العصفور، بعد حبة القمح، توضع «الخيّة» (جزء من الحبالة) وهي الحبل الذي يوضع بطريقة «تكاكة» فوق التمرة، فإذا أدخل العصفور رأسه ليأخذ من التمرة، وجاء بأدنى حركة تطبق عليه الخيّة إطباقة فم القط على صيده، ونكون نحن قريبين منه، فنأتي راكضين لتخليصه منها، ونقله إلى أيدينا التي لا رحمة فيها.

والعصفو يستكن في الليل، ويسرح في فضاء الله في النهار، يبحث عن رزقه، ويؤدي ما عليه في حياته

من واجبات تجاه نفسه وزوجه وفراخه إن وجدت.
وهناك قصة رمزية، تقص أحوال العصفور وحيلة الذكر منه على الأنثى:

يقال إن الكحالي في الشتاء، عندما يأتي وقت النوم، وتأوي العصافير إلى بيوتها يقول لزوجه:

«إن الهوام تبحث الآن عن الدفء، ولهذا تدخل إلى بيوت العصافير، تستكن فيها، وتذهب إلى أعماق البيت، ولهذا سوف أدخل إلى هذه الأعماق لأحميك مما قد يكون هناك من خطر ينتظرك لينقض عليك.

وفي فصل الصيف يقول لها خلاف ذلك: ادخلي أنت داخل البيت، لأن الأعداء الآن يبحثون عن المكان البارد، وداخل البيت حار، وأنا سأكون خارج

البيت عند بابه، لأحميك من أي خطر داهم.

وهو في كلا الحالين يبحث عما ينفع نفسه، ففي الشتاء يحظى بالدفء في عمق المكان، وفي الصيف يحظى «بالطراوة» والنسيم العليل في خارج البيت.

وبعد أهدي هذه القصة للنساء حجة في أيديهن، ودليلاً على أثرة الرجال!! هذا إذا لم تكن إحداهن هي التي وضعت هذه القصة!.

وقد يقول بعض الرجال:

إن هذه القصة أتت من ذكور الطيور، ولا تنطبق على الذكور من الناس. وأنا أقول مادام الأمر عن الذكور والإناث «فكله طير». ولعل بعض القراء لم يسمع بقصة «كله طير»، وهذه هي «للإحماض»:

قيل إن رجلاً من أصحاب العقول المتحجرة ذهب إلى الجزار واشترى قطعة لحم ووضعها في زنبيل وضعه على رأسه، فجاءت «جليماء» (حدأة)، وانقضت على الزنبيل وخطفت اللحمة، فاغتاظ الرجل غيظاً شديداً، وقرر أن ينتقم، فلما وصل إلى بيته أخذ عصا المكنسة، وراح يضرب الدجاج الذي في بيته، فاستغربت امرأته هذا التصرف منه، وسألته عما دعاه إلى هذا. فأخبرها بخبر الحدأة وخطفها اللحم، فقالت: ولكن الدجاج لم يخطف اللحمة، و هو ليس بحدأة!

فقال: كله طير.

ونحن نقول: كله ذكور.

النجوم:

من الأمور التي كنا «نتمقّلها» (ننظر إليها بإمعان) النجوم، كانت تأخذ وقتاً كافياً من تفكيرنا في الليل، وهي سلوتنا ونحن وحدنا أو مع أهلنا على سطح البيت، وكنا عندما نصعد للسطح لا يكون معنا نور، وإذا كان هناك سراج فهو يوضع في «المنفوح» المبيت، بعيداً عنا، ليكون مهيأً لمن يريد أن ينزل إلى المصباح، أو إلى أسفل البيت.

ونحن ـ نحمد الله ـ على أنه لم يكن هناك نور، وإلا كان أنقص من صفاء الجو الذي يمتعنا بالنجوم اللامعة كأنها «شذر» (كسر زجاج).

كنا نستلقي في فرشنا على ظهورنا نسمع بعض

الحكايات الخيالية التي تهيؤنا للنوم، لهدوء من تقصها وتأنّيها، ولدغدغة النوم لها هي كذلك، وكثرة تثاؤبها، وتبدأ الجملة أحياناً فيغالبها النوم فتصبح مثل «الجرامفون» الذي انتهت «تمليته»، فنوقظها، وتسألنا أين وَصَلَتْ في قصتها؟ فنرشدها، ثم تعود للقصة، ثم للنعاس، حتى تنام وننام معها. وهي مثلنا مجهدة، فهي تعمل طوال النهار، لا تجد راحة، ولهذا ينام أكثر الناس بعد صلاة العشاء مباشرة.

هذا ما يحدث عندما تكون أمهاتنا معنا، ولكنهن أحياناً يكن في أسفل البيت مكملات لعمل النهار من طحن وغيره، أو على سطح آخر «يعبطن»، «العبيط»، وهو تخليص تمر السكري أو المكتومي من نواه وقشره، وعجنه، ليُحتفظ به للشتاء فهو وجبتنا

الرئيسة فيه في الصباح.

حينئذ نتفرغ للنظر إلى النجوم بإمعان ومتعة، وهي تتلألأ فوق رؤوسنا، فهذا «المجر» مجر الكبش، كبش إبراهيم عليه السلام الذي جرّه جبريل فداءً لإسماعيل، وهذه بنات نعش[1] السبع واضحة متميزة في موقع كل واحدة بجانب أختها، وهذه هي الثريا، وهذا هو المرزم مقبل عليها، ولكنه لا يصل إليها، وتدور بينهما المحاورة التالية:

«أنا المرزم واجيك أرزم وأحت الشوك بمخلاتي».

فترد هي بتحد وثقة:

أنا الثريّا بنت العليّا ما تلحقني يا مسكين.

وإذا مللنا من عدّها ومتابعتها وتخاطفها، أخذنا

---

(١) وتقول الأغنية: بنيّات نعش ينقلن نعش من باب نعش إلى باب نعش.

نغني بعض الأغاني التي يحفظها الأخ صالح الحمد القرعاوي، ابن عمتي، وقد أخذها ممن هو أكبر سنّاً منه، وأذكر منها:

ألا يـا اللّه يا غافـر ذنوبـي

وأنـا إن زليـت لا تـزرَ عليّـه

أحب الصدق مانـي بالكـذوب

ولا لـي بالعلـوم القلّبيّـة

وَنَظَرنا إلى النجوم لا يخلو من بعض ما ينغصه، فقد كنا نُحَذَّر من عدها، لأن من عدّها يخرج على جلد يديه «ثَوَاليل»، ولا أدري ما هي الصلة بين النجوم والثواليل، أو ما هو الخطر الكامن من عدّها، مع أن الأقرب إلى العقل والمنطق أن نحث على عدّها، لأن هذا يساعدنا على النوم. ولكن من حسن الحظ أننا

كنا ننسى هذا التحذير بجانب بهجة عدّها، والتسلي بذلك. ونحن لا يزعجنا أن نعلم أنا أخطأنا مادام ليس هناك مجال لنمسك بالجرم المشهود، فقد نعدها بصدورنا دون أن نحرك شفاهنا، ولكن الذي يزعجنا هو علاج الثواليل إذا صح القول وظهرت في أيدينا، لأن دواءها حينئذ في حرقها، بتحمية رأس «المخيط» الذي يشبه الإبرة في تصميمه، لكنه أمتن منها، وهو في طول القلم، تخاط به أكياس العيش (القمح). ثم اكتشفنا بعد أن انتقلنا إلى مكة أن دواءها بوضع خلّ مركز عليها، وهي حبيبات تجف مع الوقت، فتشوه منظر اليد.

ولعل فكرة عد النجوم وجلبه للثواليل من بقايا الجاهلية، وما أكثر الخرافات التي بقيت من تلك الأيام،

ومنها أن الشخص إذا مر من فوق شخص مضطجع طُلب منه أن يعود، فإذا لم يفعل فسوف يموت قريباً ذلك الرجل المضطجع.

وخرافة أخرى مفادها أنه لا يقبل جالس أن يقف خلفه فوق رأسه أحد، وحينئذ يلتفت الجالس إلى الواقف ويقول له مؤنّباً، إنك سوف تمص دم رأسي.

وخرافة أخرى: من حكّ عينه بيده فعليه تقبيل يده!.

ومثل وضع مجموعة من الروائح العطرية، أو المرّ والحلتيت في صرة صغيرة يعلقها «المُطهَّر» في رقبته، حتى لا «يستشم» الجرح!، ومن مرضت عينه صرّ قطعة مر أو حلتيت في طرف غترته، وشمها إذا شم رائحة عطر، أو شكّ أن من أقبل عليه ممن يداوم على وضع العطر.

السحارات:

وتمر من فوقنا في الليل ونحن على السطوح فرق من الطيور المهاجرة، ويقال لنا: إنها السحارات، وعلينا أن لا ننظر إليها، لأنها أحياناً تسقط قرن «زباد» إذا كانت راضية، وإن لم تكن كذلك أسقطت عليه يد هاون. وننصاع للأمر، ونحرم أنفسنا من منظر لو تمكنا منه لآنسنا، على كل الظلام كفيل ألا يرينا إياه رؤيا تملأ النفس.

ويسبح خيال القصص عن السحارات بما يبهجنا، ويؤنسنا، ونصدقه، ولا نشك في أن ما يقال لنا هو حقيقة، فمن هن هؤلاء السحارات؟ ومن أين يأتين؟ وإلى أن يذهبن؟ والجواب عن تلك الأسئلة وغيرها يأتي في قصتهن الطريفة الآتية:

هن فتيات يأتين من عُمَانْ، بلد السحر، والسحر فيها منتشر إلى حد أن الإنسان يحذر هناك من أن يخرج في الصباح دون أن يأكل شيئاً، فإن خرج أصبح عُرضة لسحرهن، ومن سحرهن له أنهن يرغمنه على أن يلتفت لهن، وهن يطللن من نافذتهن، فإذا نظر إليهن أغرم بهن، وذهب إليهن، وصار طوع أمرهن.

فإذا أقبل الليل يقوم بعضهن برحلة يعبرن بها جو الجزيرة العربية، ووسيلة انتقالهن «نبع» نخلة، «ينخبنه» (يجوفنه)، ويفرغنه من الداخل، ويركبن، ويتوقف عددهن على حجم النبع، ولكن الغالب أن يكن اثنتين أو ثلاثاً، وليقلع يقلن له: «طرْ بين انثيين أو ثلاث»، فيطير ويمر بهن على نجد، فإذا رأين غديراً نزلن عليه وتبرّدن، ولعبن، ثم طرن وعدن أدراجهن

إلى عُمان.

وفي إحدى هذه الرحلات طار النبع باثنتين، فلما رأتا غديراً نزلتا عليه، وفاجأهن فارس أقبل ليسقي فرسه، فرآهما تسبحان، فانفرد بإحداهن، فلما عادتا إلى «الجذع»، وركبتاه وقالتا له الكلمة السحرية المعتادة: «طرْ بين اثنين» لم يطر، فنظرت إحداهما إلى الأخرى، فتفاهمتا بالنظر، فجاء الأمر للمركبة: «طرْ بين اثنين وذكر» فطار. ولو لم يطر لقالتا: «طر بين ثلاث أناثي، أو أربع، أو ثلاث وذكر»!!.

وكنا ننام في منحنيات إحدى القصص التي قد نسمعها أكثر من مرة في الأسبوع، وكانت تتسابق قصة السحارات مع قصة خضير الحصان المتجنس (جنّي)، وأم العنزين، وغيرها، وكل طفل حسب

سنّه، أحدهم يطلب هذه، وآخر يطلب تلك، ويقوم نقاش تنهيه الوالدة التي تقص بأن تبدأ القصة التي تختارها، وتجعل الجميع أمام الأمر الواقع.

وقد جمع هذه القصص الشعبية استاذي الكبير عبدالكريم الجهيمان في كتاب له نفيس سوف يكون في يوم من الأيام مادة ثرة لدراسة أكاديمية تظهر كيف كان التفكير في تلك الأيام، وتكشف عما وصل إليه هذا التفكير، وصلته بالحاضر، وهذا بالطبع موضوع مهم.

وإذا كانت النجوم متعة للعين، فمتعة الأذن هي سماع القصص، بالإضافة إلى مُتع أخرى، فللأذن متعة كذلك في الأصوات التي تأتيها من بعيد أو قريب، يحملها الليل على جناح نسيمه، يَقْوَى الصوت أو

يضعف، ولكنه مطرب، حتى ما قد يكون منه نشازاً، فهو في الليل يتدثر بدثار مقبول. ونحن نسمع صوت بعض الختّامة، وهؤلاء هم الذين «يفزعون» لأقاربهم أو جيرانهم، في حرث أرضهم التي لم يتمكنوا من حرثها في النهار، والأقارب والجيران يرحبون بهذا، لأنهم سوف يردون لهم جميلهم هذا عند الحاجة، فصوت الختامة مطرب، ولو أننا في تلك الأيام لا نفهم ما يقولون، حتى لو كنا قريبين لأن تداخل الكلمات حسب النغم يجعل من الصعب فهمها، ولكن النغمة كانت شجيّة.

والعجيب أن أصوات الحمير في الليل شجيّة، يحملها الهواء من مكان بعيد، فيصفّي ما فيها من «نكر»، ونشاز، ولا يبقى إلا الصوت الذي ننام بسببه، وربما

حلمنا بعد النوم بهذا الصوت، وهل هناك ما يمكن أن نحلم به عن الحمار إلا ركوبه. ولا يبعد عنه نباح الكلاب بالليل، فنحن نقبله ونتساءل هل هو عراك بين الكلاب أم هجوم على ذئب، أو تحرش بإنسان، ويأخذنا الخيال ما شاء له.

وأما نعيق البوم وهو قليل، فإنه على الرغم من أنه «نعيق» إلا إنه كذلك مطرب، ويخلِّف ذكرى أستعيدها كلما رأيت بومة أو سمعتها.

لقد كنا ندير هذه الأمور في أفكارنا، ندرسها، ونتدبرها، ونتبصرها، تأخذ منا وقتاً يُشبع نهمنا كأطفال إلى المعرفة، ويشغل وقتنا، ويبني صرح تجربتنا، ويضع الأسس لما سوف تكون عليه هذه التجربة دون أن ندري.

تحدثت أول ما بدأت حديثي، عن هذا الجانب من نشاط في تلك السنين، عن نشاطنا في القيلولة، وأهميتها لنا، وما نفعله فيها من متع لنا فيها، هي أحياناً آلام لغيرنا، وسأختم هذا الحديث عن نشاط لغيرنا في زمننا عن القيلولة، وما فيها من ملامح عن لذة فريق على حساب آلام فريق آخر:

عُيّن قاض في إحدى قرى القصيم، وربط به قرى أخرى تتبعه، فسمع سكان إحدى القرى بهذا التعيين، فذهب إليه متخاصمون منهم وقت القيلولة، بعد أن أوضعوا سوانيهم:

طرقوا بابه، فقال لهم من الطارق؟

قالوا: متقاضون.

قال: قيلوا فإن الشياطين لا تقيل.

قالوا: الذي يأخذ مئة صاع ومئة وزنة لا يقيل.
ـ مشيرين بذلك إلى ما يحصل عليه القاضي من بيت المال من قمح وتمر، مقابل عمله ـ.

قال: من أين أنتم؟

قالوا: من القرية الفلانية.

قال: لقد ظننت ذلك لأنه ليس فيها إلا أعوج.

قالوا: وهل يأتيك إلا الأعوج.

قال: والزبدة؟

قالوا: لا زبدة بدون خضّ، اخرج واقض بيننا.

وخرج وجلس على عتبة الباب، كالمعتاد، وقضى بينهم، وانصرفوا، وضاعت على القاضي القيلولة.

الأعيـــاد:

الأعياد في كل بلد، وعند كل جنس، وفي كل دين، هي أيام بهجة وفرح، يُلبس لها الجديد، ويقدّم فيها أحسن أنواع الطعام، ويتهادى الناس حسب عاداتهم وتقاليدهم. وعندنا في المملكة عيدان، وهما العيدان اللذان حددهما الدين، أحدهما عيد رمضان، يأتي بعد شهر الصوم، والثاني عيد الأضحى وقت الحج.

وفي أيام العيد في عنيزة، مثلما هو في غيرها، تعم الفرحة، ويدخل البشر كل بيت، الغني فيه يعطف على الفقير، ولكلٍّ بهجته، والرجال لهم مجال فرحتهم وسعادتهم التي لا تخرج عما يرونه يرتسم على وجوه من هم في ذمتهم، والنساء لهن فيه ما يبهجهن في أنفسهن، وفيما يرينه في أولادهن.

والصغار لهم القِدح المعلى من يوم العيد وليلته، وكأن العيد في الأساس لهم، والباقين تبع لهم. والفرحة في يوم العيد تأتي من لبس الجديد، ومن الذهاب إلى مصلى العيد، ومن زيارة الأقارب والحصول على «الحَقاق»[(١)]، وهي هدايا العيد من حمص وحلوى، وملبّس، وكشمش (اللوز السوداني)، وفي النادر زبيب.

والحلوى هي ملكة «الحَقَاق»، وغالباً ما تكون سكر نبات، وحلاوة روح الحلقوم، وقد تكون مما يأتي من الشام.

وليلة العيد يسمح فيها للصغار بالسهر «للتعلل» (السمر)، ويكون هذا على «تنقيم» الحب «الفصفص»،

---

(١) ويُعطى الحقاق أحياناً قبل يوم العيد.

فإذا كان حب قرع فهذا غاية المنى، ويتبع ذلك ما يمكن الحصول عليه من لوز «بندق»، أو قعقع (عين الجمل)، وتمر يبيس، وغير ذلك من أشياء لا يحصل عليها بعض الصغار إلا في النادر.

وفي صباح يوم العيد يُرى أثر السهر على وجوه بعض الصغار، فيأتون لمصلى العيد ذابلي الأجسام، مصفرّي الوجوه، ساهمي الأعين، «ينودون» (ينعسون) وقت الخطبة، فلا يستفيدون مما يقال، وقد لا يعقلون صلاتهم.

وأذكر أني بعدما عدنا من صلاة العيد في أحد الأعياد، ذهبت إلى القهوة حيث جدي وعمي يجلسان لاستقبال المهنئين والزوار، وكنت في سن تسمح لي بأن أشاركهم الاستقبال والتهنئة، لاحظا، وأنا قريب من

«الوجار» حيث النار، أني «أنود» وأن رأسي «طرخ» (مال) في إحدى مرات «النّودان» حتى كادت النار تلمس وجهي، وكان الوقت شتاءًا فرحموني، وطلبوا مني أن أذهب لأنام، فذهبت ونمت نومة عيد لذيذة على سطح البيت في الشمس تحت غطاء ضافٍ دافئ.

ويذهب الرجال والشباب البالغون في يوم العيد، قبل بزوغ الشمس إلى مصلى العيد، خارج عنيزة في نفود الخريجية ويجتمع في المصلى كل سكان عنيزة من الرجال والشباب، لأنه لا مصلّى غيره في المدينة. وأذكره الآن جيداً، لأني ذهبت إليه مرتين أو ثلاثاً، وكلما ذكروا استغاثة محسن الهزاني تصورت أن الاستغاثة التي أقامها ـ رحمه الله ـ تمت في مثل هذا المكان.

ولأن الناس يذهبون مبكرين، والصلاة والخطبة تأخذان وقتاً يعطي البنات المتخفرات وغير المتخفرات فرصة ذهبية، يخرجن، بثيابهن الجديدة الأنيقة الملونة، وهن ناشرات شعورهن، «يحندن» (يرقصن) بحرية تامة[1]، «وإذا غاب القط إلعب يا فار!!»، أو «خلا لك الجو فبيضي وأصفري»، ويأخذن كامل حريتهن في الرقص، والتنكس، زرافات ووحدانا، تطفح السعادة من وجوههن، ويملأ الشباب جوانحهن، وترتسم البسمة على شفاههن، تزينهن عافية الشباب، وتساعدهن قدودهن الممشوقة في التلوّي والتثني، وسرعة دوران الأجسام الرشيقة، والأقدام الصغيرة. شعورهن الطويلة منكوشة منفوشة، لتضفي على

(١) يبدو أن البنات في بعض الأحياء، أو في وقت لاحق لزمننا، لا يخرجن للأسواق، وإنما يجتمعن في أحد الأحواش فيرقصن.

الرقص منظراً خلاّباً. يغنين ويكون الغناء هو الموسيقى التي تحكم حركاتهن. وقد تنزل بعض النساء المتزوجات الصغيرات فيشاركن في أول الأمر، ولعلهن بخبرتهن يضعن الخطوط الرئيسة «للحند» (الرقص).

ولا يكدّر عليهن هذه المتعة، التي ينسين معها أنفسهن، وينسين الوقت وما مر منه، وينسين في غمرة الانسجام ما يجب عليهن من الحذر، إلا انقضاض الشباب عليهن فجأة، وقد جاؤا بحذر، لأنهم يعرفون أنهن في غاية الانسجام، والغفلة عنهم، فيخطفون قُبلة من هذه وقُبلة من تلك، وهم يرددون كلمة متوارثة:

«حُبَّة العيد ما بَه منّة».

أي أن البنت التي تُقَبَّل ليس لها فضل في أن القُبلة

أُخذت منها، فالمنّة للعيد الذي أتاح الفرصة لها أن تؤخذ، وتفرنقع البنات بأسرع ما يمكنهن، ويبقى الحديث عن هذه القبل إلى العام القادم.

ومادام الحديث عن «الحُبَب» (القُبل) أذكر بيتين، سمعتهما وأنا صغير، وأذكر بعض أشطرهما، فقد صادف أن زرت مع الأخ عبدالله الشافي العم علي الإبراهيم الخويطر في مكة، وجرى حديث معه أسمعنا فيه الأبيات التي كانت تردد أيام الأعياد في عنيزة، وفرحت فرحاً بالغاً بعثوري على من يحفظ تلك الأبيات، وهي أبيات غزلية، تدل على تسامح الناس في تلك الأيام، وطهارة قلوبهم، وعدم تعنتهم في أمور عابرة، وليس وراء قول هذه الأبيات فعل، وإنما هي قول شعراء يقولون ما لا يفعلون، ويدّعون ما لا يصدقون فيه:

عادت على اللي بالهوى سبّل الحبَّة

حُبَّة عشيري والعرب ما يشوفونه

أطلق زرار الثوب وبينّ اللّبّة

شرّع قبالي ما حلا صَفَّة قرونه

الشباب يصورون ما لا يقع إلا في الخيال، وأحياناً في الخيال الموغل في البُعد، وما يبدونه من التمنّي بعيد المنال.

عيد الأضحى:

عيد الأضحى عيد له طابعه المتميز به، ففيه يشبع الفقير، ويجود الغني، ويتحرك سوق الأغنام والأبقار والإبل، وفيه تزدهر صناعة الجزارين (القصابين). وترى رجالاً ونساءً يأخذون «شلوع» اللحم من

بيت إلى بيت. وترى الأطفال وهم من يعرف المتعة حقاً، أول من يبدأ أكل الكبدة المحموسة والقلب. و«الخلع» (السلالي) فقرات الإلية وفيها اللحم والشحم. ولكن هذه متعة البطن والشهية، أما المتعة الدائمة حقاً فهي جمع أكبر عدد من «الكعابة»، التي سوف يزدهر سوقها بعد العيد، بيعاً وشراءً ولعباً، اللعب بها طول العام، وهي لا تبلى.

وحوش الفهد دوره كبير في عيد الأضحى، وكانت الأضاحي قبل أن يشتري الوالد بيت الفهد البسام الملاصق لبيتنا تجمع في حوش البيت الأصيل الكبير، ثم صارت تجمع في حوش بيت الفهد، لسعته وبعده عن الالتقاء بالزوار والمهنئين، وموقعه يجعله يؤدي ما لا يؤديه حوش القهوة الأول.

تُجمع الأضاحي الوصايا منها وغير الوصايا، وأذكر أنه في إحدى السنوات بلغ عددها خمس عشرة أضحية، والقصاب لا يذبحها كلها في يوم واحد، لأنه قد واعد أناساً آخرين ويحجز «القصاب» قبل العيد بزمن، لأن العيد موسم ذبح، وعلى القصابين وغيرهم ممن يَذبح طلب شديد وتنافس، لأن الذبح محدود بأيام العيد الشرعية، وأذكر أنه كان مع عمي ورقة فيها الوصايا يحتاجها عند التسمية، والجميع حريصون على صحة التسمية حسب الوصية، ودقيقون في هذا، وكان منظر احتفال لا يُنسى، كلٌّ يعمل: القصَّاب بالذبح والسلخ والتقطيع، والرجال بالتسمية، وبإمساك الأرجل والأيدي ومنعها من الرفس عند الذبح، فهذا قد وضع رجله على رأس الخروف حتى

لا يحاول أن يرفعه وينهض. فإذا برد قرصوا سرته فإن تحرك فمعناه أنه لا يزال حيّاً وإلا علقوه، وبدأوا السلخ، ولابد من تحرّي القبلة. والصغار واسطة بين الرجال والنساء، يدخلون اللحم عليهن، وهن يقمن بتقسيمه حسب الوصايا وما يقتضيه الشرع من جعلها ثلاثة أقسام، ثُلث لأهل البيت، وثلث للإهداء، وثلث للفقراء. وهم الصلة أيضاً بين الرجال والنساء فيما يحمس بسرعة من كبد وقلب، ويقدم للقصّاب والأولاد والرجال، وهناك كما قلنا «الخلع» (السلالي)، وهو ألذ ما نأكله، لأنها تؤخذ من محور إلْيَة الخروف، ومعروف أن أكثر ما يذبح الذكور من الضأن، وقليل من يذبح أنثى. وعلى ذكر الخلع أذكر أن الأخ عبدالله الحمد القرعاوي، ونحن صغار،

نادانا وقال: «انظروا «بالسماء خلع»، وكان في السماء «مشع» سحاب، قطعة سحابة بيضاء، وبجانبها زرقة سماء، فكان التشبيه دقيقاً.

الألعاب:

حديثنا عن الكعابة يبرر أن نتكلم عن الألعاب في ذلك الزمن، وهي شغل الصغار الشاغل، كل لعبة ولها ما يتناسب مع ما تحتاجه من دقة وفن وإتقان. وكلّ يختار ما يتناسب مع سنّه ومع ذوقه، ومع من يتوفر من المشاركين في اللعبة، فبعض الألعاب لا تتم إلا بلعب فريق، أو على الأقل اثنين. وبعضها له مواسم تحكمه.

والألعاب في تلك الأيام لا تتغير، فما كان يلعبه

الأب يلعبه اليوم الابن ويلعبه غداً الحفيد، قلّ أن يطرأ على اللعبة تغيير، مثل «الطابة» الكرة التي كانت من الخرق ثم صارت من «جلد الخنزير» بلاستيك!.

الكعابة:

الكعابة (في مكة الكبوش)، هذه اللعبة من أحب اللعب لدى الصغار والفتيان، ولها نظام وأصول للعبها.

والمبدع فيها يكسب أكبر عدد من كعاب المنافسين، وكم أفلس منها شاب وربح آخر، وهيكل اللعبة كما يأتي:

تخط «الخوطة» دائرة، أو مستطيلاً، أو مربعاً، في الأرض على التراب، ثم «ترص» الكعابة في وسطها،

يوضع أول صف على الأرض وعدده ثمانية مثلاً، ثم يوضع فوقه في الطابق الثاني سبعة، ثم فوقه ستة أو أقل، وفي القمة يوضع واحد. ثم تُجرى القرعة، إذا كانت اللعبة للمرة الأولى، لكي يعرف من البادئ الأول، أما إذا لم تكن اللعبة الأولى في ذلك اليوم فالذي يبدأ هو الرابح سابقاً.

ويوضع خط على الأرض بالبعد المختار، المتفق عليه، وتسمى المسافة بين «الخط» و «الخوطة» «المدى». ويقف اللاعب، قاذف «الصّول» الكعب المرصص الثقيل عند الخط، وقفة معينة، فيرسل الصول على صف الكعابة، ويحاول بهذه الضربة أن يخرج من «الخوطة» أكبر عدد ممكن من الكعابة، ومع إخراج ما أخرج، تتبعثر بقية الكعابة، ثم من المكان الذي بقي

فيه الصول يعيد الكرَّة، ويخرج ما تبقى واحدة واحدة، ووقفته تكون بوضع غير مريح، تشديداً عليه، وأملاً في أن يخفق. ويبقى مستمراً في اللعب إلى أن يخفق في إخراج واحدة بإحدى الضربات، والخبير لا يُبقي شيئاً، ويربح جميع ما أخرج. وهناك شروط للعبة يُتفق عليها ومنها «الكف» وهو أن يلوي اللاعب ساقاً وراء أخرى حتى يصعب عليه الأمر فيأتي تقديره أو إرساله خطأ، ويخرج من اللعبة. وترى بعضهم وقد انتفخت جيوبه بالكعابة، وهذا مصدر فخر، وهذا الانتفاخ نيشان. أما في زمننا، والشيء بالشيء يذكر، ليس في الثياب إلا جيب واحد، أيمن، وكان هذا يُعدّ آنذاك تقدّماً بعد جيب الجيب الذي على صدر الثوب من الداخل. ولم نعرف الجيب الثاني إلا بعد أن جئنا لمكة. وفي مكة شهدنا أيضاً وضع

جيب صغير على الصدر، ولم يكن شائعاً، ولم يضعه إلا الشباب، أو من معه ساعة جيب، ثم عمّم.

عظيم لاح أو (الملعبة):

وتسمى بمكة (بربر)، وهي مستطيل يخط على الأرض طوله ما يقرب من ثلاثة أمتار، يقسّم عدة أقسام: أولها «الملعبة»، وثانيها «الملينة» (أي الراحة)، والثالث «أم خطوط»، والرابع «أم قبيس»، وفي مكة تختلف أسماء الأقسام.

والأداة التي يلعب بها إما قطعة خشب أو قطعة حجر (كما في مكة) أو قطعة من ضلع الجمل، وهي الأفضل، والأساس، مربعة ، في حدود ثلاث بوصات. تحذف هذه من خارج المستطيل من ناحية قسم «الملعبة»، ثم

يرفع الشخص رجله اليسرى، و «يعتب» (يحنجل) على اليمنى، ويحاول اللاعب عند رمي «الملعبة» ألّا تكون بعيدة عن الخط الذي يليه، حتى لا تكون قفزته صعبة ومتعبة، وأن يضمن أن يحط من قفزته على هذه الأداة «الملعبة»، وإلا ترك الميدان لمنافسه.

وهو يحاول أن يُخرج الملعبة إلى خارج المربع الأول من حيث بدأ اللعبة، ويحط عليها كذلك، ثم يأخذها ويحذفها إلى المربع الثاني، ويفعل كما فعل من قبل، ويخرجها ويحط عليها. وأصعب مرحلة هي أم خطوط لأن في أولها خطين، وهي بعيدة لأن قبلها قسمين، فإذا وقعت الملعبة على خط من الخطوط أو بين هذين الخطين خرج اللاعب من اللعب، وبدأ منافسه اللعب. وله في «الملينة» حق في أن يقف ويستريح، لأنه يكون

مجهداً من القفز على رجل واحدة ومن توقع الخطأ، فهو يستريح نَفَساً مثلما يستريح جسماً، ويستمر اللاعبان، وقد يكون العدد أكثر، حتى يحين وقت الصلاة، أو وقت العشاء عصراً.

الطابة:

الطابة (الكرة) تلعب غالباً باليد، يرمى بها تجاه الجدار، و «تلقف» (تلتقط) عائدة بيد واحة. وهي صغيرة تملأ اليد، ولم نكن نعرف كرة القدم. وكانت الطابات في تلك الأيام نوعين: نوع مصنوع في الخارج من بلاستيك (جلد الخنزير) لأنه قيل لنا إنها تصنع من جلد الخنزير، ويبدو أن هذا لأنها ليست من جلد الماعز أو الضأن أو البقر أو الإبل فلم يبق إلا

جلد الخنزير، خاصة وأن لها طبيعة غريبة. والغريب أن هذه التسمية لم تكن تنفرنا، بل كانت هذه الكرة هي المحببة والمفضّلة، وصاحب الحظ هو من يقتنيها، وأتذكر أن الذي كان يبيعها اسمه محمد الغنام، ودكانه في سوق الهفوف، وهو الوحيد في عنيزة الذي عنده صناديق قزاز للعرض مثل البخارية في المسعى. ولون الكرة هذه أبيض، وتكون أحياناً بلون آخر، أو تكون مخططة، واللعب بها أفضل وأسهل، ويكفيها أقل مجهود لتضرب إلى الجدار، وتعود منه بقوة. وهناك فرق بين أن ترمي الكرة إلى ما فوق مستوى الرأس قليلاً أو كثيراً. وبعدما تُعاد للجدار عدة مرات دون توقف، دون أن تسقط الكرة، يكسب الشخص درجات في اللعب.

والتمرين المتواصل يجعل اللاعب يتقن اللعب بها على الرغم من سذاجة هذا اللعب، ويأخذ التمرين عليها وقتاً طويلاً. ولكن هذا النوع من الكور عمره قصير، فالعمل شاق والشمس حارة والجو جاف، وكلها تؤثر في بقاء الكرة صالحة، وكنا نجد في داخلها عندما تتمزق نتوءً يسمّونه قلبها.

وهناك «طابة» الخرق، وهي كرة تعمل من قماش، بطريقة فنية، نحشوها بالخيوط، أو هدب القماش، ونجمع أطراف الكرة بدقة، وكلما صغر التقاء الأطراف دل على قدرة خائطها. وأظننا ننظر إلى هذا الأمر، وأهميته في هذا الجانب، تماماً كما يفعل الجراحون بصغر فتحة البطن عند إجراء الزائدة الدودية، وقفله. خاصة عند إجراء عملية لراقصة بطن!.

وهذا النوع من الكرات هو صديقنا الوفي، الذي يبقى معنا مدة أطول ولا يكلفنا مالاً، وهو يصبر علينا في استعمالنا له استعمالاً جافياً خشناً، ونصبر عليه لتدني كفايته، وتواضع أدائه. وهو لا يزعجنا إلا إذا قذفناه إلى جدار فيه «فرجة ملطوسة» (نافذة ملغاة مسدودة وظاهرها لم «يليّص»). فتدخل الكرة بين اللبنات، ونضطر إلى البحث عن «جذمار» طويل، نحاول أن نصل إليها به، ونخرجها، وكثيراً ما كنا نجد نافذة ملغاة في الصفة.

النوافذ الملغاة:

لا أود أن أعطي فكرة سيئة عن هذه النوافذ الملغاة، فهي إن كانت مزعجة لنا من الخارج عند لعب الكرة،

فهي صديقة حميمة لنا من الداخل، وفائدتها لا حدود لها، فالعصافير تبيض في الفجوات بين لبنها وطياتها، وتبقى ثقوب صغيرة نطل منها على عشها، ونرقبها من الداخل، وهي لا ترانا، ونتابع حال البيض حتى يفقس. ثم نبدأ مراقبة «الحواقل» (جمع حوقلة)، وهي كيس شفاف كلها بطن، ثم يبدأ الزغب يعلو جسمها، ويتلوه الريش، نراقبه وهو ينبت قليلاً قليلاً، تماماً مثل ما يفعل مُصوِّرُوا برامج الفضائيات الخاصة بالطيور، حين تُعدّ لهم منصات رقابة فيها آلات تصويرهم. وهم يعانون مما يفعلون؛ ولكننا نحن أقل منهم عناءً.

ومراقبة الفرخ حتى يبدأ الطيران تحتاج إلى متابعة وصبر، وتأمل، ومكافأتنا في النهاية مجزية، فإذا أصبح الفرخ مطياراً، أخذناه من الفتحة إذا كانت واسعة،

أو وسعناها، ثم نسدها فيما بعد، أو ننتظر إلى أن تنزله أمه إلى الأرض. وكثيراً ما يفلت منا لسوء تقديرنا عن نضجه، فينزل من عشّه ونحن لاهون عنه، أو ينزل رأساً إلى مكان لا تصل إليه أيدينا أو رماحنا. وقد تحدثت عن بعض جوانب في هذا المجال في حديثي عن العصافير[1].

بقي أن أقول إن المتأمل في عمل «الأمية» في إطعام فرخها يؤمن بقوة في قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ على إيجاد الفطرة في مخلوقاته من الحيوانات ويأخذ الصغير من هذه الحيوانات الفطرة من والديه اللذين أخذاها من الأب والجد، وهو لا يحيد في تطبيقها قيد أنملة. ونحن نرى فرخ الدجاج يخرج من البيضة في المفرخة

---

(١) انظر: (١/ ١٩٨).

الصناعية. ويتصرف كما يتصرف الفرخ الذي خرج من بيضة حضنتها دجاجة، وتجده رأساً يتجه بمنقاره إلى الأرض يبحث عن رزقه فيها ليلتقطه. لقد جعل الله هذا من الفطرة التي لا يحتاج معها إلى تعليم أو قدرة، أما فرخ الحمامة فيبقى عالة على والديه حتى ينبت ريشه ويفارق العش.

الصقلة:

هي حصى صغار، وهي في الغالب من «المرو»، وهي في الأصل لعبة البنات، ولكن الصغار من الذكور يلعبونها أيضاً، وهي من الألعاب الساذجة، ولكنها مع هذا، تحتاج إلى تمرين، تضعها الصبيَّة في داخل يدها، ثم تقذفها إلى أعلى قليلاً، ثم تتلقاها بظاهر

اليد، فإن استقرت كلها على ظاهر الكف دفعتها مرة أخرى إلى أعلى ثم إلى داخل اليد، وتعد بذلك رابحة. أما إذا سقط بعضها على الأرض فعليها أن تلتقط ما وقع بأصبعين من اليد اليمنىَ نفسها، وتضعها في داخل اليد اليسرى، فإذا أخذت جميع ما في الأرض، أعادت ما على ظاهر الكف إلى داخل راحة اليد، وتعد في هذه الحالة رابحة كذلك، وهذه اللعبة فيها تمرين لليدين وللذهن، وتعد من مهدئات الأعصاب.

الورّارة:

أخذ اسم الورّارة من صوتها، وفي مكة اسمها «الفرفيرا»، وهذا هو صوت حركتها، وهي ورقة تقص بشكل معيّن، وتلصق بطريقة تشبه المروحة، وتثبّت

من وسطها على طرف عود يحرّك يمنة ويسرة فتدور، والمتعة في الركض بها أكثر، وهي تدور إلى حد يجعلها لا تكاد تُرى أحياناً، خاصة إذا كان من صنعها خبيراً، ويزدهر سوقها في الأعياد، وهي ذات ألوان زاهية.

وكنا نصنعها بأنفسنا، وكان أحياناً يعوزنا وجود «صمغ» (غراء)، فكنا نحتال على ذلك ببعض المواد التي يدخل في تركيبها التمر، لأن التمر نافع لإلصاق «القمورة» «بالمجاول»!.

البَعَّة:

وهي خشبة بطول ست بوصات أو سبع «محذربة» (مبرية) من طرفيها، عريضة عند وسطها، فإذا وضعت على الأرض أصبح طرفاها مرتفعين قليلاً، فإذا ضربها

اللاعب بالعصا «المعمال» قفزت في الهواء، فيضربها ضربة قوية في الاتجاه الذي يريده. والربح فيها يعتمد على طول المسافة التي تقطعها البعَّة، وعدد المرات التي أرسلت بها قبل أن تصل إلى نهاية المضمار المحدد.

وهذه لعبة جذابة تفقد السائر الشعور بالمسافة التي عليه أن يقطعها، فيمر الوقت وينتهي الطريق دون أن يشعر به اللاعب، ويمكن أن يلعب هذه اللعبة واحد أو اثنان. وهي تشبه في مجملها لعبة «الجولف». ويقال إن «البعَّة» لعبة أهل الكهف عندما خرجوا منه!

كبّاري كبّوري:

هذه لعبة اسمها لا يعطي فكرة عنها، ولعلها أخذت من أن اللاعب ينطق بهذا الاسم وهو يدور خلف

اللاعبين. وهي شائعة حتى في إنجلترا بين الكبار في أعياد رأس السنة والميلاد. يجتمع مجموعة من الأولاد في دائرة، يركزون نظرهم في وسطها، ويقوم أحدهم ومعه «الضاع» (غترة مفتولة)، يخفيها خلفه، ويدور خلف الجالسين عدة مرات ثم يضعها خفية خلف أحدهم، فإن تنبه هذا قبل أن يكمل واضعها دورته، أخذها ولحقه، وضربه بها، حتى يصل إلى مكانه، وإذا لم يتنبه أخذها راميها وضربه بها.

كبش العمى:

هذه لعبة أخرى ساذجة، يغمض أحد الصبية عينيه، وحوله آخرون، والمطلوب من معمّى العينين أن يبحث عنهم، وهم يلمسونه لمساً خفيفاً، أو مؤلماً،

إشارة إلى مكانهم، وإذا أمسك المعمّى أحدهم حل مكانه وأكل من الضرب ما أكله زميله السابق.

العجاوي:

«العجاوي» واحدتها «عجيّة» (مدوان في مكة وفي بعض البلدان «نحلة»، وهي تثقب من وسطها ثقباً نافذاً[1]، فإذا دارت خرج منها صوت يشبه تماماً صوت النحلة، ولهذا سميت في هذه البلدان كذلك. وشكلها قريب من جسم النحلة، خاصة إذا كانت ملونة، وأظن أنها كانت تأتي من الشام.

والعجية خشبة مخروطة الشكل، أعلاها أعرض من أسفلها الذي تدور به على مسمار قد ثبّت فيه.

---

(١) في بعض بلدان نجد لا يثقب إلا المغزل.

ويتم «ثبتها» (رميها) على الأرض بطريقة خاصة تتقن بعد تدريب طويل. والحبل الذي يدار عليها من أسفلها إلى أعلاها يسمى «المريرة» ثم تحذف على أساس أن يكون أسفلها على الأرض وهي تبدأ تدور في الهواء بمجرد أن يُجَرّ الحبل، وتستمر تدور على الأرض حتى تبرد وتقف، فإذا كان هناك لاعبان فإنهما يحفران حفرة صغيرة في الأرض، تملأ بالتراب، ثم توجه العجيّة إليها، والعجيّة أصلاً «أُثبتت» قريبة من الحفرة. ثم يوجهها صاحبها للحفرة «بندّة» من «سيف» يده، مرة أو أكثر، حتى يدخلها الحفرة، «فيدمغها» بيده لئلا تقفز منها، وأحياناً تكون العجيّة قريبة من الحفرة فلا تحتاج إلا إلى «نفخة».

ويتفق قبل اللعب على شروط منها هل يجوز

للشخص «ندة» أم «ندتان» أم أكثر، وكذلك يتفق على العدد المناسب من النفخات، التي إذا استنفدت ولم تدخل العجيّة، يخسر اللاعب اللعبة. وكلما قلّت شروط النَّدات والنفخات دل ذلك على «حرافة» اللاعبين.

وتختلف جودة العجاوي باختلاف النّجار الذي يصنعها، واللاعب الذي يكمل ما أنقصه النّجار، بأن يحكك المسمار ويهيئه للعب الذي هو قد تعوّد عليه، لأن له تجربة في طي الحبل، وفي ثبت العجيّة، أي حذفها، وإذا أثبتت على «قاع» أرض صلبة «لعّست» أي تركت «لعسة» في الأرض، أي علامة لأنها «سهت» أي استمرت مدة طويلة في دورانها حتى لا تكاد العين تتبين دورانها. وقد يجرفها الخبير بيده «يلقفها» وهي في هذه الحالة، ويجري بها مسافة يُحسب بُعْدُها من

مكان الانطلاق إلى أن يتوقف دورانها.

وصاحب العجيّة، إذا كانت جيدة، يحاول أن «يُملّس» (ينعِّم) طرف مسمارها، حتى لا «تخادش»، والمخادش هو أن تدور بشكل فوضوي، ولا تقف في مكان واحد على رأس المحور، كما هو المطلوب، وإنما تأخذ دورات متباعدة وغير منتظمة، وهذا عيب فاضح، وهذا العيب يصيبها كذلك إذا كانت جديدة ولم تخدم من صاحبها. أو أن «ثابتها» ليس خبيراً، أو أنه أخطأ في طي الحبل، وقد يأتي هذا من سوء الصنعة.

المغـزل:

هو أخو «العجيّة»، وهو أطول منها، ولم يثقف مثلها تثقيفاً كافياً. وصنعته أقل إتقاناً، ويُعمل بطريقة

بدائية، إذا قيست بصنعة العجيّة، وأذكر أني طلبت من أحد النجارين أن يعمل لي مغزلاً، ودفعت له أجرته، وهو رجل كبير السن، وله دكان بجانب بيت العم سليمان المحمد المزيد، جد أخي محمد، ومن المؤكد أن هذا النجار كان أكثر اهتمامه منصبّاً على الأمور الكبيرة التي تحتاج إلى مهارة النجارة، مثل أبواب البيوت، ومحاجين الحمالين والسواني، ولم يكن يفتح دكانه إلا لماما، وقد ماطلني كثيراً، وقد لا تكون مماطلة لأني شخصياً «مُعلِقٌ بِرَطْب»! إذا أردت شيئاً لم أصبر.

ولقد صدته يوماً فاتحاً دكانه في العصر، وكنت مرابطاً هناك، واسمه (ع)، ولن أذكر أسرته، لأنها معروفة في عنيزة. ولم يجد مناصاً من أن يعمل لي مغزلاً. وكان دكانه في منتهى الفوضى، النشارة قد

غطت أرضه، والخشب قطع مبثوثة في كل مكان، حتى إن الداخل لا يستطيع أن يضع قدمه إلا على قطعة خشب.

دخل الرجل الدكان، ووقفتُ ببابه، والتفتَ حوله، ونظر يميناً ويساراً، وكأني أراه الآن وبيده فاروع صغير (قدوم)، والتقط قطعة خشب صغيرة بقدر حجم اليد، وأعمل فيها قدومه، وفي ثواني انتهى من نجارة المغزل، ثم ثبّت المسمار، وأعطاني إياه ـ رحمه الله ـ فخرجت من عنده، وكأن في يدي رأس كليب.

ولم أصبر فقد كانت «المريرة» (الحبل) بيدي، فأخذت أطويه على المغزل وأنا أسير، وأثبته على الأرض أمامي وأنا أسير، إلى أن وصلت إلى دارنا، وبقي المغزل

معي، إلى أن انتقلت إلى جامعة «العجاوي» في السنة التالية.

آه، ليتني احتفظت به إلى اليوم، ما أكثر «الآه»، وما أكثر «ليت» في هذه المذكرات.

السبت سبّوت:

هذه اللعبة لا دخل لها بأيام الأسبوع، إلا في أن هذه الأيام تساهم في العدّ، ولا أدري لماذا سميت بهذا الاسم، والأولى أن تسمى «الحصان» لأن ما يجري فيها أقرب إلى ركوب الفرسان خيلهم، خاصة أنها تحتاج إلى دقة وإتقان

وصورتها أن ينحني أحد الشباب، كما يفعل لركعة الصلاة، فيأتي شخص، من مسافة مناسبة ركضاً

ويضع يديه، على ظهر الراكع عرضاً ويقفز من فوقه، والمتوقع أن ينجح في هذا العمل، وقليلاً ما يخطئ، كأن يتردد في آخر لحظة عندما يصل إلى الراكع، أو يسقط بعد القفزة، ثم يركع القافز، ويأتي دور الآخر، وهكذا إلى نهاية السوق الذي بدؤوا اللعبة في أوله..

وأحياناً ينحني عدّة أشخاص، تباعاً كل واحد بعد الآخر، يبدأ القافز بأول واحد، ثم في النهاية يصطف معهم، وينحني مثلهم، ويحل محله في القفز من كان يليه في الصف.. وهكذا حتى تنتهي اللعبة.

والقافز، وهو يقفز أول قفزة، يقول: السبت سبوت، ثم الأحد عنكبوت، ثم الاثنين إمبا إمبا، والثلاثاء خط الصبيان، والأربعاء نتّافة الآذان، والخميس فرحتنا، والجمعة نكرتنا، ثم تليها «أول طبلة» ثم «ثاني طبلة»،

ثم «ثالث طبلة»، ثم «أول قعدة» ثم «ثاني قعدة»، ثم «ثالث قعدة» ثم «إلحقني يا مسكين».

وقد لا يتقن الصغير ذكر هذه الكلمات بالتسلسل، وأذكر أن بعض الصغار يبدأ بالسبت سبوت، والأحد عنكبوت، والاثنين إمبا إمبا، والثلاثاء فرحتنا، والأربعاء نكرتنا، والخميس نذبح إبليس، والجمعة نذبح عنزنا صمعة.

وهكذا كنا ونحن صغار نرصّ أقوالاً لا معنى لها، ولا رابط بينها، ولا تمت للعبة بصلة، ولا يمت بعضها إلى بعض بصلة. ولعلها أقوال تبلورت وتطورت عن كلمات لها معنى، وجمل تعطي مفهوماً، والصغار سريعون إلى التحريف عن غير قصد، وهم يفعلون إذا لم يفهموا معنى الكلمة، أو عندما لا يدركون مرماها،

أو عندما ينسونها، ولم يكن عند الصغار دافع يحملهم على التصحيح من كبار السن ممن حولهم.

الحربلة درج درج:

ومن الأمثلة على تركيب الصبيان الجمل غير المفيدة قصة تروى عن مجموعة منهم في عنيزة مروا بالسوق يركضون، وينشدون: «الحِربِلّة درج درج لابده من فصعة فرج»، ولعله اجتذبهم ما في عجز الجملة من بذاءة. ويقال إن الشيخ صالح العثمان ـ رحمه الله ـ أو الشيخ عبدالرحمن السَّعدي كان قاعداً عند أحد أصحاب الدكاكين بعد صلاة العصر، فسمع ما يردده هؤلاء، فابتسم وقال لصاحب الدكان:

هؤلاء «المُصْلَحين»، حرّفوا الحكمة الجميلة في

هذه الجملة، فأصلها: «الحرب إلى دِرِّج درج، لابده من ساعة فَرَجْ».

ولو عرفوا معنى القول هذا لما نطقوا به لأنه ليس في معناه حينئذ ما يجتذبهم.

أم تسح (البذّة):

هذه اللعبة لها من اسمها نصيب، فهي حفر صغيرة في الأرض، ثمان أو عشر، يوضع في كل حفرة منها تسعُ من نوى التمر، ويتقابل على الحفرة اثنان، كل واحد له الصف الذي يليه، يضع في حفيراته نواه التسع، ثم تجري القرعة بينهما، ليعرف من يبدأ منهما، ثم يبدأ من وقعت القرعة عليه يأخذ من أول حفرة، ويوزع النوى على الحفر التي تليها حفرة حفرة، نواة نواة، وعندما

ينتهي ما بيده من النوى يأخذ ما في الحفرة التي وضع فيها آخر نواة، ويوزعها، فإذا وصل إلى حفرة فارغة، ورمى فيها آخر نواة في يده وقف، فهو لا يبدأ من فراغ، ولا من حفرة ليس فيها إلا واحدة.

فإذا توقف الأول يبدأ الثاني من أي حفرة ملآى إلى جانبه، ويعمل مثل ما عمل الأول، ويستمران باللعب حسب شروطهما، وحسب ما اتفقا عليه، وحينئذ يأخذ كل واحد ما تجمع في جانبه والكاسب من أخذ الكثير.

وقد يكون الاسم في الأصل هو «البذّة» لأن البذ في اللغة العربية الفصحى هو «الغلبة» أو «التفوق»، وهو كذلك المفاخرة والمسابقة. وكل هذه المعاني تصلح لأن تكون مصدراً للتسمية.

الدنانة:

دنّ في اللغة العامية بمعنى درج على الأرض وتدحرج. مثل ما تفعل الكرة عندما تدفع على الأرض، ومن معانيها في اللغة العربية الفصحى «طنّ» أي أحدث صوتاً مثل طنين النحل، وهذه اللعبة فيها صفة السير بانسياب على الأرض، ولها صوت يمكن أن يقال عنه هسيس، أو تجاوزاً طنين.

والدّنانة هذه طوق من حديد خفيف مصمت، وله يد «سيخ» يمسكها الدانّ بها، ويدفع بها هذه العجلة، وقد صمم رأس «السيخ» بحيث يمنع العجلة من أن تقع ومن أن تميل، ويدفعها للسير إلى الأمام، ويثبتها عن أن تميل، وأحجام العجلة مختلفة في العادة.

ما سبق نبذة عن الألعاب تعطي صورة لمن يريد أن يقارن ما كان منها موجوداً في الماضي، بما يعرفه ويشاهده اليوم.

***

❊❊❊

بهذا ينتهي الجزء الثاني من

«وسم على أديم الزمن»،

ويليه، إن شاء الله، الجزء الثالث،

وبه بقية ذكرياتي في عنيزة

مما لم يرد في الجزء الأول أو الثاني.

وأسأل الله العون وسداد الخطو

❊❊❊



ملحق الفهارس

ملحق الفهارس

أولاً : فهرس الموضوعات

❊❊❊

ثانياً: فهرس الأسماء

(أ)

(ب)

(خ)

(ر)

(ص)

(ع)

(ف)

(ق)

(ك)

(م)

***

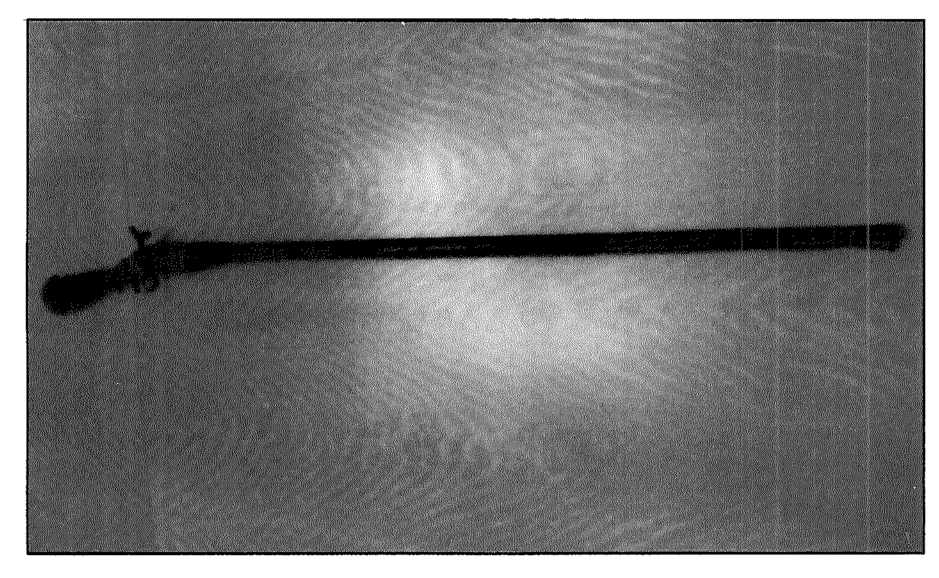
ثالثاً : فهرس الأماكن

(ض)

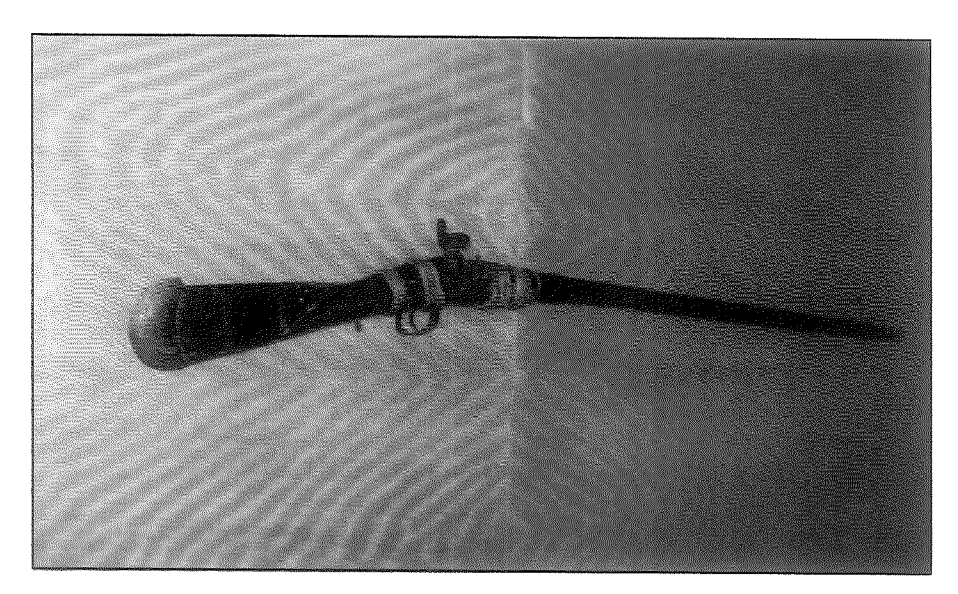
(ع)

رابعاً : فهرس الصور

فيما يلي صور لجويسرة (البندق) :



صورة (١)



صورة (٢)



صورة (٢)

كتب صدرت للمؤلف

* نشر عام ١٣٩٠هـ كتاب: الشيخ أحمد المنقور في التاريخ.
* ألَّف عام ١٣٩٠هـ كتاب: «عثمان بن بشر».
* ألَّف عام ١٣٩٥هـ كتيب: «في طرق البحث».
* طبع في عام ١٣٩٦هـ كتابه عن الملك «الظاهر بيبرس» باللغتين العربية والإنجليزية.
* حقق عام ١٣٩٦هـ كتاب: «الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر» ونشره.
* حقق كتاب: «حسن المناقب السريّة المنتزعة من السيرة الظاهرية» لشافع بن علي، ونشره عام ١٣٩٦هـ.
* من حطب الليل: الطبعة الثانية عام ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، والثالثة عام ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
* ألَّف عام ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م كتاب: «قراءة في ديوان محمد بن عبدالله ابن عثيمين».
* ألَّف بين عامي ١٤٠٩ و ١٤١٤هـ كتاب: «أي بُني» في خمسة أجزاء.
* ألَّف منذ عام ١٤١٤هـ كتاب: «إطلالة على التراث» سبعة عشر جزءًا.
* ألَّف عام ١٤١٨هـ كتاب: «يوم وملك».
* ألَّف عام ١٤١٩هـ كتاب: «ملء السلة من ثمر المجلة».
* ألَّف عام ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠١م حديث الركبتين.
* ألَّف عام ١٤٢٤هـ كتاب: «لمحة من تاريخ التعليم في المملكة العربية السعودية».
* ألَّف عام ١٤٢٥هـ كتاب: «دمعة حرى».
* ألَّف عام ١٤٢٦هـ كتاب: «وسم على أديم الزمن - لمحات من الذكريات».

مطبعة سفير تليفون ٤٩٨٠٧٨٠ - ٤٩٨٠٧٧٦ الرياض
E. Mail: safir777press@hotmail.com



• نبذة عن المؤلف •

- ولد عام ١٣٤٤هـ في مدينة عنيزة في القصيم في المملكة العربية السعودية .
- جزء من دراسته الابتدائية بعنيزة وجزء منها والثانوية في مكة المكرمة .
- حصل على الليسانس من دار العلوم في جامعة القاهرة عام ١٣٧١هـ .
- حصل على الدكتوراة في التاريخ من جامعة لندن عام ١٣٨٠هـ .
- عيّن في العام نفسه أميناً عاماً لجامعة الملك سعود .
- عيّن وكيلاً للجامعة عام ١٣٨١هـ حتى عام ١٣٩١هـ .
- درّس تاريخ المملكة العربية السعودية لطلاب كلية الآداب .
- انتقل منها رئيساً لديوان المراقبة العامة مدة عامين ثم وزيراً للصحة ثم وزيراً للمعارف .
- عيّن في عام ١٤١٦هـ وزير دولة وعضواً في مجلس الوزراء .

مطبعة سفير : الرياض ☎ ٤٩٨٠٧٧٦ - ٤٩٨٠٧٨٠

• هذا الكتاب •

يرسم صورة لطفل يدب نحو الثالثة عشرة من عمره ، في مدينة عنيزة ، حياته مثل آلاف من الصبيان غيره ، وهذا الجزء هو واحد من ثلاثة أجزاء يؤمل أن تعطي صورة صادقة لحياة الصبيان في ذلك الزمن .



ردمك : ٩ - ٠٦١ - ٥٦ - ٩٩٦٠ (مجموعة)
٥ - ٠٦٢ - ٥٦ - ٩٩٦٠ (ج٢)